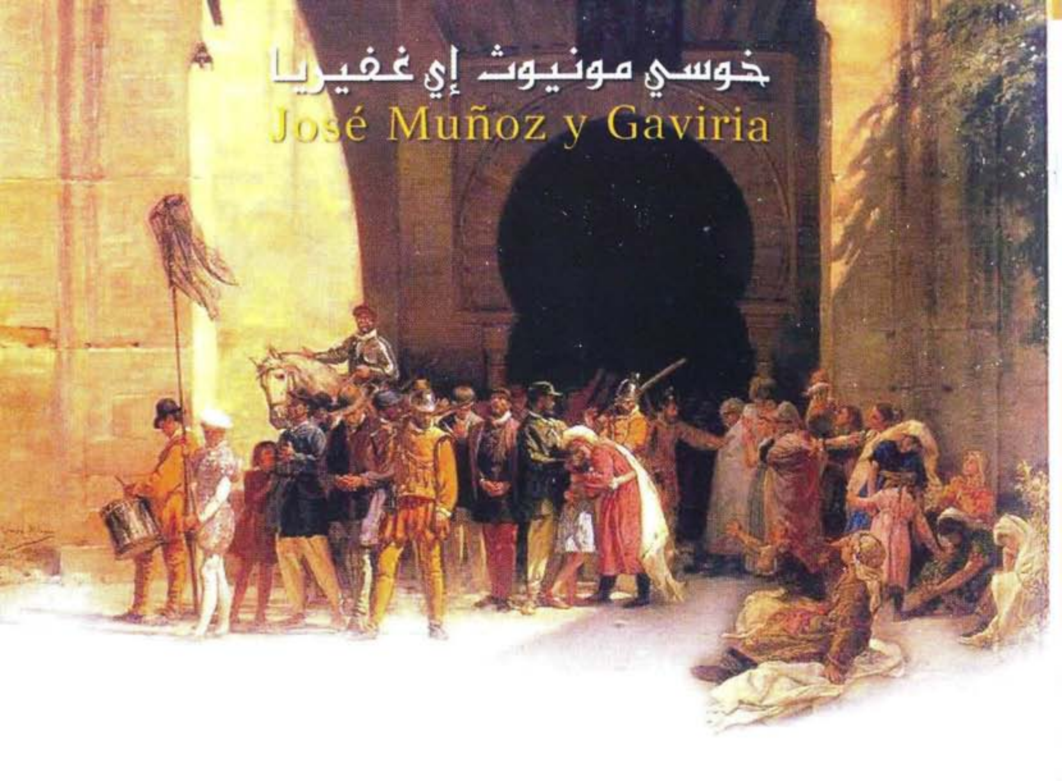


خوسي مونيوث إي غفيريا

José Muñoz y Gaviria

تاريخ ثورة الموريسكيين

Alzamiento de los moriscos

وطردهم من إسبانيا
وعواقبه على سائر أقاليم المملكة

ترجمة : د. عبد العزيز السعود

Traduccion : Abdelaziz ASSAOUD

خوسي مونيوث إي غفيريا

فيكونت سان خفيير، ولد في القرن 19. محام وعضو بالأكاديميات الملكية للآثار وعلم المسكوكات بكل من مدريد وطرقونة وفارس رهبانية سان خوان العسكرية، وكان وكيلا لسائر إيرادات جزيرة فرناندو بو وباقي ممتلكات إسبانيا الإستعمارية في خليج غينيا.

خوسي مونيوث إي غفيريا

تاريخ ثورة الموريسكيين

و طردهم من إسبانيا
و عواقبه على سائر أقاليم المملكة

ترجمة و تعليق : د. عبد العزيز السعود

منشورات ليتوغراف

الكتاب : تاريخ ثورة الموريسكيين

المؤلف : خوسي مونيوث إي غفيريا

ترجمة وتعليق : د. عبد العزيز السعود

الناشر : ليتوغراف

الطبعة : الأولى (2010)

الإيداع القانوني : 2010 MO 2901

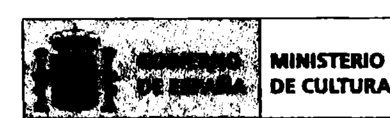
ر د م ك : 978-9954-503-05-8

السحب : مطبعة ليتوغراف – طنجة (57/56 63 33 539 (0) 212+)

جميع الحقوق محفوظة

تم نشر هذا الكتاب بدعم من

وزارة الثقافة الإسبانية



تقديم

شغل موضوع الموريسكيين اهتمام كثير من الإخباريين و المؤرخين الاسبانيين منذ عدة قرون إلى الأن، فمحنة الموريسكيين و معاناتهم بسبب صدور مراسيم التنقيل و الطرد ثم التنكيل بهم و مصادرة ثرواتهم وإرغامهم على التنصر قسرا و تهديد هم بطائلة الموت كل ذلك أرق ضمائر العديدين. و ان تاريخ الموريسكيين بالخصوص في كل من مملكتي غرناطة و بلنسية مثال فائق للحالة الموريسكية التي يمكن أن نعدها نتاج الهزيمة، هزيمة أولية في حرب الغزو أو «الاسترداد» كما يحلو للمسيحيين تسميتها و التي ختمت باتفاقات مزيفة في 25 نوفمبر 1491 لم يتم الإيفاء بها من قبل الملكين الكاثوليكيين منذ أن شرع المطران دي سيسنروس في تشجيع التنصير القسري للموريسكيين الغرناطيين، ثم ثورة 1499 - 1501 التي وضعت حدا لمرحلة المدجنين حيث أصبح مصير المغلوبين أكثر وضوحا. و لم يستطع التنصير العام و لا الاتفاقات الجديدة التي دشنت المرحلة الموريسكية أن تحمل مصيرا مختلفا عما بات قائما فهي لم تكن سوى تثبيت لهزيمة جديدة أفقدت كل أمل، و كذلك بالنسبة للثوابت الفكرية و الذهنية لهذه المرحلة التي لم تثمر شيئا آخر بحيث أعلن انتهاء حرب البشارات عن نهاية مروعة لحضارة دامت عدة قرون و بقيت محصورة لفترة متأخرة في المملكة النصرية البائدة.

و كان الملك فليبي الثالث قد أمضى في يوم 9 أبريل عام 1609 قرار الطرد، و يشير هذا التاريخ إلى نهاية وجود أقلية أندلسية مسلمة في

إسبانيا و التي كانت قد مكثت إلى ذلك الحين في مختلف الممالك في كل من قشتالة و أراغون و مرسية وبلنسية وفي اشترمدورا وفي كطالونيا تحت سيادة عواهلها المسيحيين. و هكذا أرغم مئات الآلاف من سكان إسبانيا من أصول مسلمة على ترك أوطانهم و التجرد من أملاكهم بعد أن نجحت سياسة التعصب الديني و فشلت سياسة الاستيعاب المجسدة في معضلة التنصير أو النفي، ثم احنة المسيحيين القدماء و ادعاء الإكليروس بعزم تشكيل مملكة موحدة تحت ظل راية المسيحية و بدون أقليات معادية ومزعجة التي من شأن بقائها أن يضع التماسك المفترض محل ريبة.

و قد شكلت قضية الموريسكيين مادة أساسية بالنسبة لعديد من الإخباريين الإسبانيين في ذلك العهد و بعده، و ظهرت مؤلفات عدة تميزت عن بعضها البعض بالتفاوت في الموضوعية و المغالاة في التصور و في نهج مقاربات متباينة عند تناول المسألة الموريسكية في كثير من ملابساتها، فتحدثت عن محاولات استيعاب المدجنين و دمجهم في المجتمع المسيحي بترغيبهم في التنصر و بترهيبهم، و ذكرت ثوراتهم في جبال و قرى غرناطة و بلنسية و غيرها و أثنت على قرارات الطرد في حق هؤلاء السكان الإسبان بسبب عقيدتهم، و قد بين بعضها العواقب التي ترتبت عن ذلك الطرد الجائر الذي أربك سائر البنى الاقتصادية و الاجتماعية و السكانية في إسبانيا و فعفعها و أوقف عجلة ازدهارها و تقدمها قرونا طويلة. ويعد الكتاب الذي يحمل عنوان: تاريخ ثورة الموريسكيين و طردهم من إسبانيا و عواقبه على سائر المملكة، من بين المؤلفات التي ألمت بكل تلك الجوانب و لذا قمنا بترجمته إلى اللغة العربية و التعليق عليه، و هو من تأليف خوسي مونيوث أي غفيريا فيكونت سان خفيير و محام و عضو بالأكاديميات الملكية للآثار و علم المسكوكات في كل من مدريد و طرقونة فضلا عن ألقاب أخرى. و يعود سبب تأليفه لهذا الكتاب حسب تقديرنا

إلى الرغبة الدفينة لدى كل نبيل من أمثاله في التمجيد بإسبانيا فإذا كان مجد إسبانيا قد خفت نتيجة لذلك الطرد التعسفي في حق سكان إسبان نشطاء فلاحيا وتجاريا و صناعيا بسبب الاختلاف العقائدي و اللاتسامح الديني فانتقلوا إلى الضفة للمضيق ليزكوا من أعداء المسيحية، فإن هذا المجد عاد ليسمو من جديد و لترفرف رايته فوق أسوار المدينة المغربية بما حققه الجنرال أودونيل قائد الجيوش الإسبانية في حرب تطوان التي شنتها إسبانيا على المغرب من انتصار جعل راية الصليب تخفق فيما وراء البحر في عهد الملكة إيسابل الثانية كما لو أنها حققت شطرا من وصية إيسابل الكاثوليكية (12 أكتوبر 1504) و التي أوصت فيها بالعمل على متابعة الحرب ضد المسلمين في أرض المغرب.

و أريد قبل فحص محتوى هذا الكتاب الذي يعود إلى منتصف القرن التاسع عشر أن أشدد على الطريقة التي سلكها خوسي مونيوث في كتابته، و هو كما عرفنا ليس رجلا إخباريا و لا باحثا متخصصا أو مؤرخا و لذلك فتأليفه يشذ عن منهجية الكتابة التاريخية و يفتقد إلى بعض عناصرها، ولكننا نعلم أنه تردد بشكل مثابر على أرشيف سيمنكس متفحصا ومتدققا في الوثائق و النصوص، و قد استخرج جل معلوماته من كتب الاخباريين المعاصرين و الكتاب الذين أرخوا لتلك الفترة أو دونوا تواريخ ممالكهم و بلدانهم التي عاشت فيها الأقلية الموريسكية قبل قرار الطرد و أثنائه. لقد اعتمد المؤلف بشكل أساسي على الأخبار التي جمعها من كتب رجال الدين الاخباريين أمثال الراهب خايمي دي بليدا صاحب «أخبار مسلمي إسبانيا» و«الدفاع عن العقيدة و طرد الموريسكيين» و الراهب مركس دي غوادلاخارا صاحب كتاب «الطرد المشهود و النفي المنصف لموريسكيي اسبانيا» و الاكليروسي و المؤرخ غسبار اسكولانو مؤلف «عقود من تاريخ بلنسية» و دييغو هرطادو دي

مندوثا مؤلف «حرب غرناطة» و كذلك لويس مرمول كربخال في كتابه «تاريخ ثورة الموريسكيين في غرناطة و عقابهم»، و كما استعان المؤلف بأحد رموز الأدب الاسباني آنذاك وهو ميغل دي سرفنطس في مؤلفه «حوار كلاب مودس» و الذي كانت أحكامه على الموريسكيين متغيرة و متناقضة. و يظهر أن مونيوث اكتسب من تلك المصادر التي أثارت قضية الموريسكيين قبل الطرد و بعده خبرة ليست بالهينة ففضله ليس بسيطا لأنه لا أحد من هذه النصوص تقريبا كان موضوع إعادة النشر حديثا.

لقد سبق و أن قلنا إن الكاتب كانت تعوزه بعض العناصر المنهجية في كتابه المذكور، و منها أنه لم يعتمد الإحالة في الهوامش و لم ينبه الى مصادر معلوماته ما خلا بعض الإشارات الطفيفة المبعثرة في المتن، و أنه قسم كتابه إلى اثني عشر فصلا تميزت تلك الفصول بعدم التوازن فيما بينها بشكل جلي و كما لم يضع فهارسا للكتاب. و قد رأينا أنه من الأجدر أن نقوم بتوضيح بعض المعلومات و التعليق على أخرى في هوامش الكتاب بدلا عن المؤلف و قد بذلنا مجهودا ليس بالقليل في سبيل تذليل ما استشكل علينا بالرجوع تارة إلى المصادر التي اعتمدها المؤلف في تصحيح بعض أسماء و أنساب الشخصيات الموريسكية المذكورة، و تارة أخرى بالعودة إلى المصادر العربية و المراجع الإسبانية الحديثة لتدقيق أسماء القرى و المدن الإسبانية كما وردت عند الإخباريين المسلمين في تواريخهم و بالأخص كتاب «المسالك و الممالك» لأبي عبيد البكري و«الروض المعطار في خبر الأقطار» للحميري و «الإحاطة في أخبار غرناطة» و «معيار الإختيار في ذكر المعاهد و الديار» لابن الخطيب و كتاب «غرناطة الإسلامية» لمرية كرمن خيمنث ماطا. و الله ولي التوفيق.

تطوان في متم غشت 2010

إلى صاحب المعالي السيد

دون ليوبولدو أودونيل إي جوريس

(صاحب الأمجاد الفاخرة و الألقاب الفخيمة)

إنه في الوقت الذي تتأمل فيه أوربا مندهشة انتصار القوات الإسبانية في إفريقيا و تلوح فيه راية القلاع و الأسود منتصرة فوق أسوار مدينة تطوان المقدسة لدى المسلمين، هذه المدينة التي أسست على يد الموريسكيين المطرودين من إسبانيا، فإننا لن نخرج عن الموضوع إذا عرفنا بالتاريخ المأساوي لشعب غلب من طرف إيسابل الأولى الكاثوليكية بعد سبعة قرون من الصراعات العصيبة، ذلك الشعب الذي عاش بيننا ردحا طويلا من الزمن إلى أن وقع خطأ سياسي جسيم أدى به إلى الطرد من أرضنا، فسار نحو إفريقيا ليضاعف من أعداد أعدائنا.

و إن إيسابل الثانية اليوم لأكثر سعادة من إيسابل الكاثوليكية لأنها عملت على جعل راية الصليب ترفرف فيما وراء البحرو تخفق فوق مدينة مقدسة حيث لم يهتف باسم المسيح أبدا. و قد كان لمجادتكم فخر كتابة هذه الصفحة الرائعة بسيفكم في تاريخ القرن التاسع عشر.

و إن الذي كان قد تم تنفيذه في عهد فليبي الثاني مع الموريسكيين في البشارات من قبل كل من المركيس دي بليش و المركيس دي مندوجر و دون خوان دي أوستريا، و ثم في عهد فليبي الثالث في بلنسية على يد كل من دون سانشو دي لونا و دون أغسطين مخييا و الكونت دي

قشتالة، قد حققته سيادتكم في إفريقيا بسرعة أكثر و حظ أوفر و مجد أكبر لإسبانيا.

و تاريخ ثورة الموريسكيين و طردهم من سائر ممالك إسبانيا و عواقبه هو تأليف لشاب استغرق فيه وقتا طويلا من البحث و التفحص في الوثائق الأصلية و تدقيقها في أرشيف سيمنكاس بعينه. و إنه لمعجب بسيادتكم أيما إعجاب لأنكم عرفتم كيف ترفعون إسم إسبانيا عاليا، و هو يلتمس منكم قبول إهداء هذا التأليف الذي سيكسب دون شك بريقا عظيما و هو يحمل في واجهته الإسم المجيد للظافر في إفريقيا.

خوسي مونيوث إي غفيريا
فيكونت سان خوان

تاريخ ثورة الموريسكيين

طردهم من إسبانيا
وعواقبه على سائر أقاليم المملكة

كان طرد الموريسكيين النصيحة الأكثر جرأة و قسوة
التي يذكرها تاريخ كل القرون السالفة.

(مذكرات الكاردينال ريشيليو، ج.10، ص.231)

ولدت لأبتهل: يوما واحدا
وددت أن أبدو ملكا ، و من ديارهم
إلى الرمال الليبية رموا
مليونا من رعيتي التقوا .
الحقول جميعها يتيمة تأوهت ،
بكت الصناعة ترملها ، ماذا يهم ؟
لا يصلني صوته .

(كينطانا ، نشيد للاسكوريال)

1

مدخل

إنه في الوقت الذي كانت فيه أوربا تنظر مندهشة لانتصار القوات الإسبانية في إفريقيا، و كانت راية القلاع و الأسود تخفق من فوق أسوار مدينة تطوان المقدسة في الإسلام، تلك المدينة التي أسسها الموريسكيون المطرودون من إسبانيا، فإنه يجدر بنا أن نعرف بالتاريخ المأساوي لشعب هزمته إيسابل الأولى الكاثوليكية بعد سبعة قرون من الصراعات العصيبة بعد أن عاش بيننا زمنا طويلا إلى أن وقعت غلطة سياسية جسيمة جعلته يطرد بطريقة أشد جورا و قسوة من أرضنا، فاتجه إلى إفريقيا ليزيد من أعداد أعدائنا و يفتح جرحا عميقا في الحجر المشترك للوطن.

و إيسابل الثانية هي اليوم أكثر سعادة من إيسابل الكاثوليكية لأنها عملت على جعل راية الصليب ترفرف فيما وراء البحر و فوق المدينة المقدسة و هتف باسم المسيح من جديد.

لقد سيطر على إسبانيا و احتلها بالتتابع كل من القرطاجيين والرومان في عهد الشيبيين[1]، ثم القوط من القرن الرابع إلى القرن الثامن الميلادي و المسلمين من بعدهم، فكانوا من بين كل الفاتحين الذين تركوا آثارا أكثر نفعا في الأراضي التي سيطروا عليها. و تشهد من آثار حضارتهم الباهرة هاته العمارة الرفيعة و الجميلة المنبتة في بعض الأقاليم، و تكشف

1- ينتسبون الى سيبيون أحد أشهر القادة العسكريين في التاريخ الروماني، و ينحدر من أسرة أرستقراطية و عسكرية في روما. و كان قد عين قائدا على حملة أرسلت الى اسبانيا حيث برهن عن جدارة منصبه كقائد عسكري حوالي سنة 211 ق.م. و سمي بالافريقي تكريما لانتصاره على هنيبعل القرطاجي عام 202 ق.م.

في جانب آخر عن أهميتها الاجتماعية من خلال المنشآت الفلاحية والصناعية التي بقيت حتى أيامنا نحن، فنظام الري مازال يثير دهشة الرحالين و كما مافتئ يرجع إلى نظمه العادلة و المقسطة لأجل البت في قضايا الفلاحين البلنسيين. و لئن كانت بلنسية عاصمة لمملكة مستقلة و محل إقامة ملكية فإنها لم تستقبل جامعا مثل قرطبة و لا الحمراء مثل غرناطة و لا خيرالدا كإشبيلية، و مع ذلك فالمسلمون فيها قاموا بتهييء أراضي مجدبة بواسطة قنوات لا تحصى لتصريف مياه الري التي توزع في كل الجهات مياه الواد الكبير و شقر المخصبة، و كما قاموا باستيراد نباتات غريبة و تجنيس نباتات لمناخات أخرى، و أعدوا قوانين حكيمة بغرض حماية استغلال هذه المنابع الجديدة للرخاء و حتى تكون إرثا مشتركا يتساوى فيه الجميع.

و إذا كانت أشجار البرتقال و الليمون و التين الشوكي المسماة حتى يومنا في بعض البلدان بتين المسلمين و شجرة الرمان التي يذكرنا اسمها بالبلاط البهي لأبي عبد الله، و شجرة الزعرور و القطن و السفرجل وشجرة العناب و الجريد و نباتات أخرى طبية و عطرية، تبعثر الغنى والثروة في بطاح بلنسية البهية و حدائق غرناطة الغناء و جنان إشبيلية الفيحاء، و إذا كان التشريع الجيد المخصوص يسهر على صيانتها وتلاقي منتجات أرضها زيادة في القيمة عند تصنيعها في كثير من المصانع، ثم إذا كان الحرير المطروز يدر ملايين كثيرة حاليا، فإن العقل المعترف به للإسبانيين يجب أن يعود للمسلمين، فنحن مدينون لهم بكل هذه الفوائد لأنهم كانوا المنشئين الأول و لأن الشيء الذي لم يبدعوه و أحدث فيما بعد تم بالاقتداء بهم و بإلهام من الذكريات التي تركوها.

و ظل المسلمون بعد غلبهم من قبل إيسابل الأولى في غرناطة بصفة رعاياها المخلصين بموجب بعض الشروط الرسمية، إلا أنهم دفعتهم فيما

بعد سياسة مضلة إلى الثورة فهزموا، ثم أدى التعصب الظلامي للإكليروس
و ضعف العاهل فليبي الثالث و أطماع وزير مرتش إلى التسبب في نزيف
عميق بإسبانيا على صعيد السكان و الصناعة و الفلاحة.

2

استحالة صهر العرق الإسباني في آخر – لم تكف لتحقيقه فتوحات القرطاجيين و لا الرومان و لا القوط – الغزو العربي.

يلاحظ المتتبع لتاريخ إسبانيا حالة جديرة ببحث عميق و تتمثل في قدوم أمم ذوات طبيعة و مناخ متباينين عن إسبانيا لحل نزاعاتها على الأرض الاسبانية، و مع ذلك فإن سكانها لم يختفوا أبدا مع انصرام القرون و لا أفنتهم الحرب و لا كان عليهم أن يلجأوا إلى جهات أخرى بحثا عن حظ مناسب أكثر. لقد خضعت إسبانيا في البداية للفنيقيين و شاهد حوض البحر المتوسط بفخر أساطيلهم و هي تمخر غماره حاملة على متنها ثروات هذا البلد المميز، و عاين شعبا من البحارة و الربابنة و التجار ينشر تجارته عبر العالم. و تم طرد الفنيقيين من قبل الإيبريين الخشنين الذين دفعهم غدر القرطاجيين إلى حمل السلاح، و انهزم القرطاجيون فيما بعد أمام بسالة الفيالق الرومانية فلم يبق لهم من أثر ما خلا البطولات المجيدة لهنيبعل و للهسدروباليين.[2]

و ظهرت روما و هي مدينة كانت في البداية للرعاة و قطاع الطرق، و استعد أبناؤها المحاربون لغزو العالم فتقدموا خطوة بخطوة فخضعت لهم إيطاليا أولا و بعدها صقلية و سردينيا ثم كرسيكا. و عانت من نيرهم كل من مقدونيا و اليونان و إيبيروس، و سقطت في أيديهم أيضا إسبانيا

2- نسبة الى هسدروبال قائد الجيش القرطاجي في اسبانيا ، و كان أخوه هنيبعل قد أمره سنة 207 ق.م. بالانضمام اليه في حملته العسكرية الا أنه قتل أثناء اشتباكه نع الرومان في معركة ميتيرس.

و غاليا، و أما بريطانيا العظمى التي تشبه زورقا مضطجعا فوق مخطافيه فكان بإمكانها أن تعتد بالبحر لإيقاف الغزاة لكنها شاهدت النسور الرومانية تحط على أسوارها. و هكذا مدت روما ذراعيها المترامين كعملاق عظيم من نهر الدانوب إلى جبال الأطلس و من المحيط إلى نهر الفرات، و خضع كل العالم لقانون روما: أوربا و آسيا و إفريقيا. إلا أن شعبا غير متحضر و شرس إذا به يتقدم من سهول آسيا الوسطى، إنهم الهون مدفوعين من شعوب أخرى مجهولة قد بادروا الألانيين[3] الذين بدورهم عجلوا القوط الذين انقضوا على الجرمانيين. و هذا الإعصار المريع من الشعوب الهمجية التي قذف بعضها بالبعض الأخر جاء ليهوي على روما و على الأقاليم المذعنة لسلطتها.

و كانت روما كما يتضح من قوانينها تعترف بشرائع الأعراق الإسبانية الأصلية، و لما سعت لاستثمار المجهود المبذول و القيام بمثابرة بعمل تصالحي تام جاء توغل الهمجيين ليقبر آثار الحضارة اللاتينية. و عرفت إسبانيا وهي واحدة من أروع الأقاليم الرومانية تنصيب عناصر القبائل التائهة التي اجتاحتها أسيادا و مستبدين بأراضيها، و كما شاهدت الألانيين و هم يبادون بحد السيف بين نهر تاجه و الواد اليانع، و الوندال و هم ينهون غاراتهم المخربة في شواطئ إفريقيا، و تفرجت على الصراع بين السيلينغيين[4] الذين تمكنوا من حكم جليقية و هم يفنون بعضهم بعضا

3- شعب هندو-أوربي من أصل آري يرجح أنهم أبناء عمومة الهون، يشير البعض الى أن موطنهم الأصلي كان هو سهوب آسيا الوسطى بينما يرجعه البعض الأخر الى شمال ايران. انتقلوا نحو الغرب متعقبين خطى الوندال الى أن وصلوا الليمس الروماني عند نهر الراين. و قد انضم قسم منهم الى القبائل الجرمانية من وندال و سويبيين خلال اجتياحهم لغاليا الرومانية، ثم تمركزوا في شبه الجزيرة الايبيرية في اقليمي البرتغال و قرطاجنة، و قد استولى الملك الألاني سنة 412 م. على مدينة ماردة وجعلها عاصمة له الى أن قتل في معركة ضد الفيزيقوط. و انتقل معظم الألانيين مع الوندال نحو شمال افريقيا سنة 429 م.

4- شعب جرماني و بالتحديد فرع من الوندال انتقل الى شبه جزيرة ايبيريا عندما بدأ النزوح الجرماني و اندمج في فرع آخر من الوندال، و قد ظلوا هناك الى أن تم طردهم نحو شمال افريقيا على يد الفيزيقوط.

بعنف شره و يراقبون بتغاض الفظاظة التي نكبوا بها الأهالي. و كان القوط هم الوحيدون الذين تمكنوا بثبات من حكم إسبانيا فلم يدعموا سلطتهم بقوة السلاح بقدر ما وصفوا بحماة و أصدقاء الشعوب المتروكة تحت رحمة أولئك الهمجيين المكدرين و القساة.

و عاشت إسبانيا مدة تناهز ثلاثة قرون سعيدة و مطمئنة تحت صولجان الملوك الفيزيقوط[5]، و مع ذلك فإن انصهار هذه الشعوب لم يتحقق بدون تذليل عقبات كبيرة، فكان قد اختمر جفاء خطير ضد هؤلاء المسيطرين وغدا ضروريا بمقتضى بعض أحكام القانون الفيزقوطي السماح و التصريح باحترام قران العائلات القوطية مع مثيلاتها من أصل إسباني، فبدأت تتوثق بهذا القانون الجديد أواصر الاتحاد و تخمد الضغائن الموروثة، وحينذاك جاء عرق جديد ليحدث ثورة طارئة و يخلق صراعا لم يشهد مثله و لن يعود العالم لرؤيته مرة أخرى، فقد شاءت الأقدار آنذاك أن يتقبل الشرق كله الدعوة المحمدية و يطأطئ الرأس أمام حد السيف و أن يتمكن الخلفاء من فتح الممالك و الإمبراطوريات.

و قطع العربي المحارب و هو يمتطي صهوة فرسه السريع قفار إفريقيا المحرقة حتى بلغ صخرة سبتة فقعد و شرع يتأمل من هناك و يقيس بنظرة شهية المسافة التي تفصله عن عمود هرقل في الضفة الأخرى، و تهيأ لكي يجعل من إسبانيا فتحه و غنيمته، ثم حلق مسرعا كالنسر إلى أن ترك الإقليم الذي سعى لغزوه خلف ظهره، فلم تكن الجبال تشكل سوى عائق بسيط أمام طيرانه الفسيح، فاجتاز المرتفعات و حط بنفسه فوق قشتالة.

5- يعدون الفرع الغربي للشعوب القوطية التي هي من أصل جرماني ، و قد لعبوا دورا هاما في أوربا بعد سقوط الامبراطورية الرومانية خلال المائتين و خمسين سنة المتعاقبة. و شكل الفيزيقوط كيانا سياسيا في فترة الغزوات الجرمانية فأسسوا مملكة في غاليا كانت عاصمتها تولوز ثم في اسبانيا حيث جعلوا مدينة طوليدو عاصمة لحكمهم الذي دام من سنة 507 م. حتى مجيء الفتح الاسلامي لشبه جزيرة ايبيريا في 711 - 725 م.

و يكفي لتفسير سرعة الفتح ذكر الحماس الحار الذي لا يقاوم و الذي بلغته الأيام الأولى لنشر الإسلام دون الإنقسام الطائفي الذي كان عليه القوط و لا ضغينة الكونت دون يوليان و خيانته و المجازفة غير المتبصرة التي عرضت مصير إمبراطورية بكاملها للخطر في موقعة واحدة على ضفاف وادي لكه.

لقد أعجب الكفار بسماء إسبانيا المشرقة و بشمسها غير المحرقة، فبأي حماس هبطوا نحو شواطئ الأندلس البهيجة ! لم يروا هناك شواطئ كئيبة و محرقة إلا ظلالا رائعة و مياها رائقة، فماذا حدث بريح إفريقيا التي تهلك النبات والإنسان ؟ و التي لا زالت تهب من الصحراء و تستنفد النبع الفاتر حيث لا يكاد المسافر يطفئ ظمأه الشديد ! . و في اسبانيا فأينما شئت تجد نسيما رطبا و معطرا و حيثما رغبت ترى أزهارا و فواكه ومدنا جميلة كإشبيلية و طليطلة و غرناطة و قرطبة و مرسية وبلنسية الساحرة !

هكذا حيى المسلمون الشواطئ الاسبانية التي حمل صيتها إلى بلادهم رواية العجائب الغريبة لبلاد باعها أحد أبنائها، و التي تباهت أمام أعينهم، فلم يبق منذئذ شاب واحد في كل موريطانيا لا يمتطي صهوة جواده و يشهر حسامه ثم يأتي ليزيد في أعداد حشود المغامرين المتحمسين و الشجعان الذين وفدوا كأسراب النحل إلى ميدان طارق ابن زياد بغرض إخضاع إسبانيا لحكم الخليفة و لشريعة القرءان.

و أقدم بلايو[6] الذي جمعته روابط الدم بالملك دون لذريق فرافقه في معركة وادي لكه و حارب بجانبه إلا أنه لم يقدر على تجنيبه حظه المشؤوم، و أزمع على إنقاذ اسبانيا، فلجأ هذا الجندي ذو الذراع الحديدي

6- كان أول عاهل لمملكة أشتورياش الا أن أصله متجادل فيه، أوقف المد الاسلامي في اتجاه شمال شبه جزيرة ايبيريا و شرع في حرب «الاسترداد»، و يعتبر حسب العرف مؤسس مملكة أشتورياش.

إلى جبال أستورياش و قبل بأن يتوج على عرش إسبانيا مثلما كان عليه أن يقبل الاستشهاد بقدر مقدس، و استطاع في زمرة من الشجعان لا ملجأ لهم سوى المغارات العميقة و الصخور المنيعة لأستورياش أن يوقف الاندفاع الظافر للعرب أسياد سائر إسبانيا، فبدأت مقاومة عجيبة و صراع دام ثمانية قرون كان بإمكانه أن يشكل من المناطق المسترجعة بكثير من الوقت و الدم إمبراطورية تكون أكثر عظمة و قوة من التي كانت عند القوط، و هكذا مثل النبي موسى الذي لم يستطع الوصول بشعبه إلى الأرض الموعودة فإن القديس بلايو الشجاع لم يقدر على تحقيق هذه المقاصد العظيمة لله فبقي تحقيقها محتفظا لامرأة قوية و لملكة عظيمة هي إيسابل الكاثوليكية.

3

الحالة الاجتماعية للمسيحيين الخاضعين للحكم العربي

- أصل المستعربين

- فصل العنصر السياسي عن العنصر الديني.

لم تكن ثمانية قرون كافية حتى تنصهر القوميتان الإسبانية والمسلمة في بوتقة واحدة، ذلك أن نفس النفور الذي خبره الفنيقيون و القرطاجيون والرومان و القوط قرونا من الزمن جربه العرب الظافرون بإسبانيا. فقد ترك السكان المسيحيون المنتصر يمر و أدوا له الجزية و أصروا على الاحتفاظ بعقيدتهم و تقاليدهم، فنتج عن ذلك نظام سياسي جديد بل أقيم أول فصل بين العنصرين السياسي و الديني. و من الخطأ الاعتقاد بأن العرب إبان زحفهم و فتوحاتهم كانوا يخلفون من ورائهم آثارا من الدمار و القتل والنهب كما كتب بعض غلاة الإخباريين، إذن لكانت إسبانيا قد تحولت إلى أرض خلاء شاسع و لما بقي أثر و لا علامة للأمجاد التي نالها العرق الشرقي في أرضنا.

و لئن كانت المقاومة التي لقيها الغالبون في كل من إستجة و قرطبة و ماردة و في تخوم غرناطة و مرسية دون جدوى فإنها حثت القواد المسلمين في وقت الخشية و الاعتدال و أجبرتهم على الظهور بصفة أكثر لينا و تسامحا من تلك الصورة التي يقدم لنا فيها التاريخ أتباع ملة محمد بالمرعبين، و إنه من الابتذال الاعتقاد بأن العرب فرضوا على الإسبان المنهزمين خيار اعتناق الإسلام أو الموت، و الفتح بدل من أن يكون دعوة

صار اكتسابا بسيطا للأرض. و كانت هذه هي المبادئ التي اعتمدها جنود طارق و موسى قاعدة للسيطرة على إسبانيا، و دعي الإسبان الذين خضعوا سواء عن رضا أو بالقوة (Mixti-Arabes) أي خليط عرب، وعند تفكيك هذا اللفظ سموا (Mozarabes) أي المستعربين[7].

و قد احتفظ المستعربون بملكياتهم و كانوا يؤدون عنها نفس الضرائب و الحصص التي كان يدفعها المسلمون و لو أنهم مستثنون من الخدمة العسكرية، أي أنهم كانوا يسددون خمسة في المائة على الثروات المنقولة و العشر على إيرادات العقارات، و كما كان الذكور يدفعون الجزية لمرة واحدة لأجل الذمة. و اتخذ العرب لأنفسهم جميع الأسلحة و الخيول معتبرينها عدة الحرب و استولوا على أملاك الذين رحلوا و أملاك خزينة الدولة و قسم من ثروات الكنائس، و هذه الأخيرة تم تحويل بعضها إلى مساجد إلا أن معظمها ظل مخصصا للعبادة المسيحية. و عانت المدن التي تم فتحها عنوة من أعمال السلب والنهب و دفعت الضرائب مثنية و لم تفلت الكنائس من أداء إتاواتها، و لكن المسيحيين لم يتعرضوا للمضايقة في أداء شعائرهم الدينية و لم يقع أي تغيير في ممارساتها بيد أنه صار من المحظور إقامة معابد جديدة بينما بقي ممكنا ترميم و إعادة بناء القديم منها مع عدم إعطائه أبعادا كبرى. و كانت الطقوس الدينية تجرى داخل الكنائس بأبواب مغلقة لكن دون أن تخضع لمراقبة المسلمين، و لم يكن يسمح بمرور

7- يعرفون أيضا بالمعاهدين، و هم المسيحيون الذين بقوا بعد فتح الأندلس في المدن و الأمصار المفتوحة تحت الحكم الاسلامي، و كانوا يشكلون أقليات كبيرة في الحواضر الرئيسية كقرطبة وطليطلة و اشبيلية و يتمتعون باستقلال محلي و يطبقون شرائعهم القوطية القديمة بحرية، و كانوا فوق ذلك يتمتعون أحيانا بنفوذ قوي داخل الدولة الاسلامية. و لكن لما نمت هذه الأقليات شرعت في مناوأة الحكم الاسلامي و تدبير الدسائس ضده و ساندت ثورات المدن و الأقاليم الثائرة و لاسيما في طليطلة و ما يجاورها. و رغم بغضهم للاسلام و للحكم الاسلامي فانهم أخذوا بقسط وافر من العادات و التقاليد الاسلامية و تكلموا العربية و كتبوا بها. و لبث هؤلاء المعاهدون على مر العصور شوكة في جانب الحكم الاسلامي يحدثون الشغب ويثيرون القلاقل و يحالفون المملكة المسيحية في الشمال و يستعدونها على الأندلس مما أسهم في تعضيد محاولات الممالك المسيحية للاستيلاء على الأراضي الاسلامية. وقد خصص المؤرخون الاسبان للمستعربين عدة مؤلفات.

المواكب الدينية وبكل مظهر خارجي للعبادة المسيحية بصفة عامة، في حين كان مستعربو قرطبة يتمتعون بامتياز قرع النواقيس أثناء أوقات العبادة.
و مقابل هذا التسامح الديني حذر المنتصرون المسيحيين من كل محاولة للمس بدين الإسلام، فكان المسلم المرتد يلقى عقوبة الموت و كان يكفي المسيحي حتى يعد مسلما التلفظ بنشوة فارطة بالعبارة المعلومة : لا إله إلا الله و محمد رسول الله ! و يعاقب المسيحي بالموت إذا منع فردا من الردة عن دينه و كذلك الذي يسب الرسول أو الذي يحتفظ بمعاشرة غير شرعية مع مسلمة فيكون عليه أن يختار بين أحد أمرين إما الإسلام أو الموت.

و حافظ المستعربون في ظل نظام الفتح على التنظيم المدني والسياسي الموروث عن القوط كاملا في الوقت الذي كان يتم فيه تحضير قانون تأسيسي جديد في جبال أستورياش و ليون، و هكذا فعندما قام ألفونسو السادس باسترداد طليطلة فإن المستعربين الذين ساهموا في عملية استرجاع العاصمة القديمة للإمبراطورية القوطية طالبوا بالاحتفاظ بما أسموه بامتيازاتهم، و حصلوا على حق الفصل في حكم أنفسهم بواسطة حكامهم الحقيقيين مثلما كان عليه القشتاليون من حكم أنفسهم. وهذا دليل على أن العرب تركوا هذا النوع من الامتياز في الحكم قائما و مشروعا وجاهزا ما دام لم يكن يتعرض لسيادتهم بطريقة مباشرة. وبقي المستعربون في كنف الحكام العديدين الذين تعاقبوا على حكم إسبانيا المسلمة و في حمايتهم إلى عهد المرابطين إلا أن العامة كانت تعاديهم باستمرار، و لم يفعل المسيحيون شيئا للتقليل من هذه العداوة و إنما اختصروا كبرياءهم في تحديهم. و قد تسامح العرب مع رعاياهم المسيحيين في أمور الدين والمؤسسات و في التقاليد و العادات بدون أن يأخذوا شيئا منهم، و لكن لما أمال النصر كفة الميزان لصالح المسيحيين شرع المستعربون في الانقلاب لفائدة إخوانهم و حينذاك قام المرابطون بإبعادهم بدون حقد اتجاههم و لا قساوة معتقدين أنهم يتمتعون بحقهم في الدفاع المشروع.

4

الاسترداد المتدرج لاسبانيا

– سبب تأخره سبعة قرون.

كان الملوك مبهرين بالتوفيق في انتصاراتهم و منغمرين في متع قرطبة و غرناطة في كنف العلوم بأمان خادع، و محاطين بتحف من فن العمارة الغنية التي تزين قصورهم و جوامعهم، و مستهينين في بداية أمرهم بعدو ضعيف لكنه جريء. كان خلفاء بلايو قد تخلوا عن نظام الدفاع وتركوا الجبال و شرعوا في غزو المدن، و مع مرور القرون تمكنوا من دق صليب المسيح في أسوار المدن الرئيسية بإسبانيا و انتقلت الأراضي الخصبة المنزوعة من يد المسلمين بالتتابع إلى سيطرة الفرسان المسيحيين و تحول الغزاة لحقهم الطبيعي إلى أسياد الأرض المفتوحة، و أذكى أمل هذه المكاسب طمع النبلاء و بالخصوص الذين يقطنون بحذو تخوم الدولة العربية، فأنشئت رهبانيات شانت ياقوب و قلعة رباح و القنطرة و شكلت مصدر رعب للمسلمين و عنصرا مهما في عملية الاسترداد، وكما قام رؤساء الرهبانيات الحربية بدور خطير في الثورات و الصراعات الأهلية التي عرفها القرنان الرابع عشر و الخامس عشر.

لم يكن الملك ألفونسو السابع متبصرا في تقسيم ممالكه بين أبنائه فقد انفصل نتيجة ذلك عرش ليون عن عرش قشتالة و لم يتم توحيد هذين الفرعين من الملكية القوطية بشكل دائم إلا بتولية فرناندو الثالث الحكم.

و تلقت الحرب ضد العرب دفعة جديدة لما قام فرناندو القديس[8] بدق صليب المسيح فوق صوامع جامع قرطبة و على أسوار إشبيلية، و حين أخضع ملك أراغون خايمي الأول الفاتح كلا من بلنسية و مرسية و جزر البليار في آن واحد. و كان من العسير الاعتقاد في منتصف القرن الثالث عشر و بعد الفتوحات الباهرة التي قام بها كل من فرناندو الثالث و خايمي الأول بأنه يجب انتظار انصرام مائتين و خمسين عاما حتى يتم إخضاع مملكة غرناطة و تحرير سائر الوطن من النير الإسلامي! ...

و لا يمكن الظن بأن الطمع و الحمية الدينية و البغض القومي كان عليهم أن يتوقفوا في سباق لا يقدم إلا عراقيل تبدو في الظاهر سهلة التجاوز، بالعكس فإن جهود الإسبان أخذت تضعف و فتوحاتهم صارت تندر. وكان انسحابهم أحد الأسباب التي أطالت هذا الصراع المديد و عطلت كل أمل و شكل منفعة عظيمة للمسلمين الذين كانوا مبعثرين في السابق في سائر مساحة إسبانيا فأصبحوا إذذاك متكثفين في مكان واحد و محتلين لأصغر بقعة ممكنة. و كان المسلمون مختلطين في أقاليم الشمال و الوسط بالمسيحيين المستعربين الذين هم أتباعهم يدفعون لهم الجزية و يلقون منهم الرفق في المعاملة، و لكنهم ظلوا أعداءهم الألدة فعندما سقطت كل من طليطلة و سرقسطة تحت سلطة أمير مسيحي فإنهما كانتا مليئتين بهؤلاء المسيحيين الفاسدين الذين أدت معاشرتهم الطويلة لأسيادهم المسلمين إلى إدخال الألفاظ العامية العربية إلى اللسان القشتالي.

8- فرناندو الثالث القديس ملك ليون و قشتالة هو بدون شك أحد أبرز ملوك اسبانيا في العصر الوسيط، استغل التفكك المضطرد للدولة الموحدية فبادر بشن حملات الغزو ضد المدن المهمة في الوادي الكبير بالأندلس، و استطاع عن طريق الجمع بين الدبلوماسية و الحرب الدخول منتصرا الى كل من بياسة و قرطبة و جيان ثم اشبيلية التي يفترض أنها كانت المركز العصبي للأندلس الموحدي. مات عام 1252 أثناء اعداده لحملة على شمال افريقيا. و في سنة 1671 أثبت البابا كلمنطي العاشر قداسته فعرف من ثمة بفرناندو الثالث القديس أو سان فرناندو .

و أخذ المسلمون في القرن الثاني عشر بعد أن تملكهم الغيظ بسبب المحن التي عانتها قواتهم في اضطهاد رعاياهم من المسيحيين الذين كانوا يرتابون من بغضهم الخفي، فكان أن أرغموهم إما على الرحيل أو الارتداد عن دينهم. و حينما انقض فرناندو الثالث على الأندلس و تمكن في انتصارين على إثر حملتين عسكريتين من احتلال بياسة ومحاصرة قرطبة الذائعة الصيت بثقافتها وعلومها العربية و ببروز أسماء كابن سينا[9] و ابن رشد، و كذلك بالأعمال الرائعة لدولة غنية و عظيمة، كانت المسيحية أوشكت أن تختفي بالكامل من الأقاليم الجنوبية، إلا أن الجوع و السيف أرغما مدينة قرطبة العظيمة عاصمة الخلافة لمدة مائة و اثنتين وعشرين سنة على الاستسلام في 16 يوليو 1236، و أقيم قداس باحتفال بالصليب رسمي في جامعها الأعظم بعد تطهيره، و نزل ملك قشتالة وليون بقصرها الفخم الذي شيده الخليفة عبد الرحمان قبل ثلاثة قرون خلت، و قد اغتم المسلمون كثيرا لسقوط قرطبة. و كانت ثورتان انفجرتا في زمن متقارب ضد الإفريقيين[10] إحداهما في بلنسية حيث استغلها بحذاقة الملك خايمي الأول المدعو بالفاتح[11] فاستولى على تلك المملكة وعلى البليار، والأخرى في غرناطة حيث تم عزل السلطان أبي سعيد عن العرش ففر عند المسيحيين طالبا الأمان لحياته المهددة و متوسلا الكرم من فرناندو، ثم تنازل له عن مملكة جيان و عرض عليه موالاته بنصف إيرادات مملكته وكل عساكره لأجل أن يعينه في مشاريعه اللاحقة فأعاده

9- لعل المؤلف يجهل أن ابن سينا لا يمت بصلة الى الأندلس، و هو طبيب و فيلسوف ايراني ازداد بالقرب من بخارى (1037-980).

10- يقصد بهم الموحدين الذين ضموا حكم الأندلس الى المغرب.

11- ملك أراغون و بلنسية و مايوركة و كوندي برشلونة و سيد مونبلييه. وكان انتصار الملكية على النبلاء قد منحه الاستقرار الضروري لكي يقوم بحملاته العسكرية ضد المسلمين في شرق شبه جزيرة ايبيريا، و نظرا لنجاحاته الباهرة في سياسته المتوسطية فانه أحرز على لقب الفاتح الذي اشتهر به في التاريخ.

فرناندو إلى عرش غرناطة. وسار بذلك صليب المسيح و الأهلة الإفريقية متحدين لأول مرة و يتقدمون نحو إشبيلية، و شاهد المسلمون في هذه المدينة بسخط كبير علم المسيح و راية محمد و هما يرفرفان في ميدان المعركة لإخضاعهم، و تم الهجوم على المدينة بعد حصار استمر ستة عشر شهرا و السيطرة عليها في يوم 21 دجنبر من عام 1248. و كان قد سمح للمسلمين بعد سقوط سرقسطة و مدن أخرى في أيدي الاسبان بالبقاء للعيش فيها كما عاش المسيحيون فيها من قبل بوصفهم رعايا و ليس عبيدا، بيد أنه بعد فتح إشبيلية تم طردهم جميعا منها نحو الممتلكات التي كانت لازالت في حوزتهم أو نحو إفريقيا و دعوة سكان جدد من جميع نواحي إسبانيا للمجيء بقصد الاستيطان هناك.

و واجه الأمراء المسيحيون مقاومة من المدن الأندلسية المحصنة مثل جبل طارق و الجزيرة و طريفة لم يعهدوها في قشتالة، تطلبت حصارات شاقة بل و كانت تسترد أحيانا من طرف العدو و تتعرض باستمرار لهجوماته. و كانت معظم قوة المسلمين في إسبانيا تتأتى من المؤازرة والمساعدة التي يلقونها من إخوانهم فيما وراء البحر، و قد اعتادنا اليوم على ربط فكرة القراصنة بمسلمي إفريقيا لأن مخيلتنا لا تستوعب بسهولة عظمة تلك الممالك الأندلسية و قدرة القواد المحاربين و جيوشهم الجرارة الذين على امتداد ثمانية قرون مجدوا حوليات هذه الأمة، و لم يطلب عرب إسبانيا مساعدة إخوانهم عبثا قط و مع ذلك فعند الاستنجاد بهم خشوا من عواقب طمعهم.

و يرجح أن يكون ملوك غرناطة قد نسبوا فضل استمرارهم لوقت أطول في مملكتهم إلى حالة التثاقل و الجمود التي استولت على أعدائهم والتي تشكل أحد الملامح المميزة للمزاج الاسباني، و كما أن التنازل عن مملكة مرسية لفائدة عرش قشتالة قد حرم أراغون من كل إمكانة لتوسيع

فتوحاتها التي شهرت عواهلها الأول و خلفاءهم البعيدي الهمة الذين ذهبوا بأطماعهم وراء حدود شبه الجزيرة. و شاهد القشتالي الصبور الذي لا ينثني أمام المحن قوته و هي تتضاءل بقدر ما شعر بقلة ضغط البلية، فبعد أن حرر بسلاحه القسم الأكبر من بلاده فضل أن يتخلى لأعدائه عن السيادة على إقليم واحد على أن يعرض نفسه لمشقة استكمال انتصاره.

و إذا اعتبر في الفترات السابقة بأن شبح الثورات الأهلية و العصيان لم يشكل عائقا أمام تعظيم الملكية القشتالية، فإنه بإمكاننا أن نعزو نقصان الغزوات الباهرة ضد المسلمين إلى الاختلال الذي زعزع الأمة لأكثر من نصف قرن بعد موت فرناندو الثالث الذي أعجبت به إسبانيا بطلا و العرش عاهلا عظيما و الكنيسة قديسا. و خلفه على العرش ألفونسو العاشر المدعو بالعالم لارتقائه بالعلوم و خاصة علم الفلك، لكن أخطاء التدبير و الشرور التي لم يعرف كيف يتقيها دفعت إلى القول بأن انشغاله بأمور السماء باستمرار أغفله عن شؤون الأرض. و كان ألفونسو بوصفه مشرعا بقانون التقاييد السبعة[12] قد ضحى في سبيل حقوق عرشه بانتحالات روما، و لم تمنعه فلسفته من أن يكون بليدا بما فيه الكفاية لتركه نفسه تنخدع مدة عشرين سنة بالإمكانة الوهمية لعرش إمبراطوري. و قد دفعه استعجاله لنيل عرش ألمانيا الإمبراطوري الذي نافسه عليه ريكاردو ملك انجلترا إلى مغادرة قشتالة، فعارضه البرلمان و طالبه بالعودة و العدول عن الحملة المتهورة التي كانت ستكلفه عرشه.

و أمام هذه المزاعم الخادعة فإن المسلمين الملزمين بدفع الضريبة في مرسية و أقاليم أخرى الثائرين تحت حماية ملك غرناطة استغاثوا بأمير المؤمنين

12- مجموعة قواعد حررت في قشتالة خلال حكم ألفونسو العاشر (1284-1252) بهدف احراز الوحدة القانونية الثابتة للمملكة، و كان اسمها الأصلي «كتاب القوانين» و هي مقسمة الى عدة أجزاء، و تحتوي على سائر المعارف القانونية لتلك الفترة في اطار رؤية وحدوية، و تتناول من بين المواد القانون الدستوري و القانون المدني و التجاري و الجنائي و القضاء سواء المدني أو الجنحي.

سلطان فاس أبي يوسف يعقوب (1257) و أزمعوا على فتح سائر إسبانيا الأمر الذي كان بإمكانهم تحقيقه لولا شجاعة ابن ألفونسو دون سانشو وإقدامه الذي أنقذ الوطن فجعلته بطولاته يستحق لقب الشجاع. و كان على الفونسو في الأعوام الأخيرة من حكمه العاصف أن يحارب ابنه هذا إذ لم يكن قانون تغيير الإرث معروفا في قشتالة حتى آنذاك، و بحسب القاعدة المطبقة في نظام الميراث فالشخص الأكثر قرابة يفضل على القريب البعيد، و يكون الحق الأفضل للابن على الأحفاد، و قد أدخل ألفونسو مبدأ التغيير في قانونه للتقاييد السبعة. و كان الأمير دون فرناندو قد مات و ترك وراءه ولدين ذكرين فتذرع عمه سانشو بحقوقه المؤسسة في القانون القديم للميراث بقشتالة، فقام خلف دون فرناندو المدعوون بأمراء الصرد مدعمين من طرف فرنسا لقرابتهم من ملكها و من قبل أراغون التي كانت مستعدة دائما للمشاركة في اضطرابات قشتالة مطالبين بحقوقهم لأكثر من نصف قرن و مخلين بالنظام العام. فبادر دون سانشو معبود الجيش ومحبوب الشعب لسخائه باستدعاء البرلمان في بلد الوليد الذي أقر لصالحه قضية الخلافة، و قلده السلطة الملكية بصفة الوصي على العرش فتبعته المدن الرئيسية في ذلك، و استنجد ألفونسو حينئذ بملك المغرب ضد ابنه فجاء لمساعدته و قام بمحاصرة قرطبة، لكن سانشو تمكن من فك الحصار المضروب عليها و إرغام أمير المؤمنين على ركوب البحر و العودة إلى إفريقيا. و لما كانت سلطة البابوات إذذاك في عز قوتها فإن الحبر الأعظم ألقى وابل غضبه على الابن المتمرد الذي حارب القوات المؤلفة من جيوش والده و سلطان المغرب، فاضطر إلى حني جبينه لحرم الكنيسة و طلب الصفح.

و تروي أخبار سانشو و خلفيه المباشرين فرناندو الرابع و ألونسو الحادي عشر سلسلة من الاضطرابات الأهلية المخزية و المحزنة في

آن واحد، ففي عهد فرناندو شرع في تعجيل صرف الأقليات و حكم الوصايات العاصف و الأحقاد الأخوية و الحروب الأهلية التي دامت قرنين. و كان النبلاء و الأثرياء يثورون كلما اعتقدوا أنهم تعرضوا للإهانة من ملكهم و باتوا يملكون الحق أو بالأحرى صاروا في وضع نكران الطاعة بفعل رسمي يخلصهم من التعرض للعقوبة أو لعلامة الخونة، و دعي هذا الفعل بالحرم من الجنسية. و شكل عدد قليل من العائلات أوليغارشية (حكم الأقلية) و هو الأسوأ في كل الحالات إذ نفس الرجال يكونون بالتناوب وزراء و أصحاب المكانة العليا لدى الملوك أو يصيرون أعداءهم المدججين بالأسلحة على بسيط من الأرض، و عندما لا يستطيعون في غالب الأحيان حماية أنفسهم داخل مدنهم الصغيرة و قلاعهم أو يكون لهم أنصار قليلون فإنهم ينسحبون إلى تخوم غرناطة و يتحالفون مع العرب و يحاربون في صف أعداء وطنهم و دينهم.

و ارتقى دون بدرو العرش بعد وفاة والده ألفونسو العاشر و قد منحه التاريخ كنية القاسي و لقبه الشعراء بالعادل، و يفترض أن التعصب غالى بشكل خطير جرائمه فالتاريخ مليء بالافتراءات التي لا تنمحي أبدا لكنه لم يفتر على دون بدرو، فتاريخ حكمه موصوف حقيقة في قسمه الكبير بقلم أحد أشد أعدائه قساوة تحدث فيه طويلا عن الاغتيالات التي ارتكبت أمام أنظار العالم و في واضحة النهار و لازالت عالقة في ذاكرة كثير من الأشخاص الذين عاشوا في عهد الإخباري أيالا. و الأجيال اللاحقة هي التي ستنصف أهواء المعاصرين فتقبل و تصدق على الأحكام المملاة من طرف الحقيقة المقسطة. و كان دون بدرو القاسي قد تسلم العرش في أحسن رعاية بعد كبح أنفة نبلاء قشتالة و تحطيم قدرات المسلمين، بيد أنه دشن حكمه باغتيال عشيقة والده دنيا ليونور دي قزمان و قتل زوجته البريئة بلانكا دي بوربون لكي يرتمي في أحضان مارية باديبا الفاتنة،

وأمر بقتل ثلاثة من إخوته و حضر بنفسه إعدام أحدهم دون فدريكي، و أوصى بذبح سلطان غرناطة ابن الأحمر الذي مكث في ضيافته بعد أن رماه بالغدر، و جعل رئيس رهبانية قلعة رباح يلفظ أنفاسه مع وجهاء آخرين تحت خنجر جلاديه. فقام إنريكي دي طرسطمارا بالثأر لأمه وإخوته و للبشرية جمعاء فقتل أخاه و ملكه بيده و استولى على العرش، و قد أعطى حكمه نفسا لقشتالة المنهكة بكثرة الحروب الأهلية. و لم تكن الفترات المتعاقبة لحكم كل من خوان الأول و إنريكي الثالث هادئة بالمثل و بالخصوص في عهد هذا الأخير نظرا لصغر سنه. ثم تولى العرش بعد عام خوان الثاني الذي عرف حكمه سلسلة من الدسائس و الحروب الأهلية بسبب ضعفه و وقوعه تحت سيطرة مفضله دون ألفارو دي لونا الذي عرف كيف يثبت ثقة عاهله فيه بفرضه احترام كرامة الملك بعد أن ظلت محتقرة لوقت طويل، ثم تجرأ فاستولى على سيف المشير[13] بعد أن انتزعه من أحد زعماء الطائفة المهزومة و أمسكه بيد حازمة و شجاعة، وقد جعلت انتصاراته في فيغيرة و وادي آش عرش عرب غرناطة يهتز من أساسه، إلا أن أعداءه استثاروا طمع الملك الضعيف دون خوان الثاني لكي يستولي على ثروة وزيره فاعتقله و سلمه إلى جلاده في بلد الوليد بعد أن حمل على عاتقه ثقل مقام الملك لمدة خمسة و أربعين عاما. لكن خوان الثاني لم يبق على قيد الحياة زمنا طويلا بعد مقتل مفضله، فخلفه على العرش ابنه إنريكي الرابع العاجز، و لما كان أبوه غير محترم فإنه صار محتقرا بدوره إذ مارس عليه المركيس دي فيجنا نفس التسلط الذي مارسه في السابق دون ألفارو دي لونا على والده، و لكن دون بلطران دي

13- كان في العصر الوسيط هو من يحرز و يباشر المنصب الأول للحرس الوطني و كما كان هو القائد و المرشد و الحاكم على كل القوات و الجيوش و فرق المتطوعين و على فساطيط قشتالة باسم الملك و كذلك المكلف بتدبير وادارة شؤون كل ذلك.

لا كويفا المفضل الجديد تمكن من الإطاحة بالمركيس المذكور و حيازة ثقة الملك و الملكة. و ما لبث أن نشأت اضطرابات جديدة و هائلة و وضعت محل شك وريبة شرعية ولادة ابنة الملك دونيا خوانا وريثة العرش التي دعيت على سبيل السخرية لا بلطرانيخا و هو الاسم الذي احتفظ لها التاريخ به، و أعلنت أخت الملك دونيا إيسابل ملكة و كانت متزوجة من دون فرناندو أمير أراغون وقد استولت على العرش بعد موت إنريكي وهزيمة أنصار لا بلطرانيخا.

5

فتح غرناطة من طرف الـملكين الكاثوليكيين

- الحالة الاجتماعية للمسلمين.

أعيد تشكيل السلطة الملكية باقتران إيسابل بفرناندو ملك أراغون فاتحدت بذلك المملكتان القديمتان المتنافستان دائما أراغون و قشتالة و كونتا الملكية الإسبانية، و لم يكد الملكان ينهيان الحرب الأهلية و يوطدان نفسيهما في العرش حتى أزمعا على تقديم نموذج متميز للسلطة التي ستقوم الملكية الإسبانية ببسطها في مملكتها. و كانت الهدنة مع المسلمين في غرناطة ما فتئت قائمة لم تقطع منذ مدة من السنين، و لم تسمح الظروف لكل من خوان الثاني و إنريكي الرابع بالشروع في الهجوم، وكان المسلمون بدورهم محطمين مثل أعدائهم المسيحيين بسبب الحروب الأهلية و الخلافات العائلية بين ملوكهم، و راضين بالاستمتاع بدون اعتراض بأروع إقليم في شبه الجزيرة. و إذا ما صدقنا مؤرخينا فإن ملوك غرناطة لم يكونوا عموما سوى مغتصبين و طغاة، إلا أنه ليس من السهل استيعاب هذه العظمة و هذه الفخامة التي ميزت الممالك الإسلامية في إسبانيا بدون أن ننسب لحكوماتهم بعض التدابير الحكيمة و النافعة، وإنها حالة مهينة أكثر من اللازم للكبرياء الوطني أن لا يقدم هذا البلد شيئا ذا أهمية ينال إعجاب الزائر ما عدا المآثر التي خلفتها وراءها سلالة أجنبية وبغيضة هي سلالة الفاتحين.

و لئن كان المسلمون و المسيحيون يغزون البلاد في كل السنين بالتناوب متلفين الحقول، فإنه لم تكن تخال الهدنة منتقضة بينهم لأن اتفاقا غريبا

كان موجودا، فالهدنة تدوم حتى عندما يتم الإستيلاء على إحدى القلاع بدون دوي الحرب و بدون نشر الرايات و لا عزف الأبواق و في أقل من ثلاثة أيام. و كان فتح المسلمين للزهراء بمثابة حجة للحرب، فقد رضي المسيحيون حتى حينذاك بشن عقوبات انتقامية في حالة مشابهة، لكن إيسابل و فرناندو أدركا أن فتح غرناطة لن يعجز قواتهما وأن من شأنه أن يضع حدا لصراع دام ما يناهز الثمانية قرون. و هكذا اجتاح القشتاليون مملكة غرناطة مدفوعين من طرف ملكتهم التي أحبوا طاعتها، و سيظهر من هذا الجيش الفاتحون المستقبليون لشمال إفريقيا ونابولي وهما بدرو نافارو و غنثالو دي قرطبة القائد العظيم. و أصبحت غرناطة عرضة للاجتياح من كل مكان بعد انحطاط سلطة المسلمين وضعفها نتيجة للفتن الداخلية التي حملت طائفة على مساعدة العدو المشترك، و لم ترضخ هذه المملكة إلا بعد عشر سنوات متتالية من الحرب العنيدة و الدامية تمكن المسيحيون خلالها من الاستحواذ على الحامة وعلى حصن غرناطة ثم فتحوا مالقة مستودع تجارة إسبانيا مع إفريقيا و أخضعوا بسطة التي كان يقطنها آنذاك نحو من خمسين ألف نسمة، و حاصروا غرناطة أسيرة الخلافات المشؤومة بثمانين ألف محارب بعد أن ثار الإبن على أبيه و الأخ ضد أخيه و اقتسم كل من عبد الله و عمه بقايا هذه السلطة المحتضرة فباع الأخير قسمته للإسبان بتعويض مالي كبير و بقي أبو عبد الله الذي سلم بتبعيته لإيسابل و فرناندو و الذي كان يتبع الهيجان العنيد للشعب بدلا من أن يوجهه. و كانت إيسابل معبودة القشتاليين تحرض بحضورها على الحصار الذي دام تسعة أشهر و قد تعرضت لمحاولة طعن بخنجر من قبل مسلم متعصب، و كما دمر حريق معسكر المسيحيين إلا أن الملكة التي لا يفتر همتها شيء و لا تعرف العراقيل طريقها قامت بتشييد معسكر جديد و متين من الحجر في ثمانين يوما لتقي جنودها قساوة الفصل،

وبنت مقابلة للمسلمين بلدة سانطا في مظهرة لهم بأن الحصار سيظل أزليا و لن يرفع أبدا.

و قد عانت غرناطة من كل أهوال المسغبة فثار سكانها على ملكهم و فتحوا أبواب المدينة أمام فرناندو و إيسابل بمقتضى تعهد صريح في اتفاق رسمي أمضاه الملك و الملكة و الأمراء و وارثوهم و ثمانية عشر أسقفا و تسعة عشر قائدا كبيرا و تسعة دوق و خمسة مركيس و خمسة عشر كونتا و ستة من كبار رؤساء الرهبانيات الحربية و ذووا المناصب في الرهبانيات العسكرية أو رؤساء الأديرة العسكرية، و في الأخير أربعة من كبار الموثقين بممالك قشتالة و ليون و أراغون ، و باختصار كل ما يمكن أن يمثل جميع سلطات الدولة. و قد احتوت هذه المعاهدة الواسعة على خمسة و خمسين فصلا احتفظ فيها للمسلمين في غرناطة بحريتهم وديانتهم و لغتهم و تقاليدهم و ألبستهم و أعرافهم و ملكياتهم و شرائعهم و محاكمهم، و أن يكونوا محكومين من طرف مستخدمين من ملتهم ومحميين من قبل السلطات المسيحية. و قد امتدت كل هذه الحصانات لتشمل أيضا المرتدين و أولادهم المعدودين في الكل كمسلمين أصلاء، و أما أسارى الحرب و العبيد الغرناطيون فيجب تحريرهم في الحال. وأعلن إقليم غرناطة أرض الملجأ و الإعفاء من الرسوم للأرقاء المسلمين المولودين في أقاليم قشتالة و أراغون الذين تمكنوا من اللجوء إليه، و يعفى جميع السكان المسلمين بهذا الإقليم من الخدمة العسكرية على الدوام وكذلك من القبالات و الضرائب العادية ماعدا التي فرضها عليهم الملوك المسلمون، و أن بإمكانهم الهجرة إلى إفريقيا بكل حرية و على نفقة الملكين خلال السنوات الثلاث الأولى فحسب وبعد انقضائها تكون الهجرة على نفقتهم، و كما لهم أن يحتفظوا بملكياتهم و بتدبير أمورها و استخلاص إيراداتها بدون أن يؤدوا عنها ضريبة بحجة تخصيصها، و خولوا أيضا حق

السفر إلى البلدان البربرية والبقاء بها مؤقتا. و قد شملت الاستفادة من هذه المعاهدة سائر مسلمي المملكة الذين خضعوا إقليمهم في مدة ثلاثين يوما و أمكنهم التمتع بنفس الامتيازات و الإعفاءات مثل أهل غرناطة مثلما المسلمين الغرناطيين الذين أقاموا في فترة بإفريقيا و عادوا إلى اسبانيا قبل مضي ثلاث سنوات.

إن معاهدة غرناطة التي ختمها كل من فرناندو و إيسابل بتوقيعيهما الفخمين أنا الملك و أنا الملكة في وسط الدائرة المشكلة من أسماء كبار وجهاء الدولة كانت أخر فعل دبلوماسي أنجز بهذا الشكل و آخر امتياز مدور. و بذلك حررت إيسابل العرش من وصاية الرجال الأثرياء التي ظلت خلال قرون تلحق أكبر الضرر بالوطن، فأعفت نفسها من التزام المصادقة من طرف النبلاء على المعاهدات و الاتفاقات و اكتفت منذئذ بتوقيعها مع زوجها الملك فحسب.

و استسلمت غرناطة في 2 يناير من عام 1492 ودخلتها الملكة إيسابل مع الملك دون فرناندو دخولا مظفرا فتحققت النذور التي أوجبها الإسبان على أنفسهم، و انتهى الصراع الذي كان قد بدأ عند قدم صخرة الكالبي[14] في يوم الخميس 30 أبريل عام 711، و كان يوم تجديد إسبانيا هو الثاني من يناير المذكور، و برز عند الساعة الثالثة من ظهر نفس اليوم صليب الفضة لرئيس أساقفة طليطلة و علم شانت ياقو و الراية الملكية لقشتالة الواحد تلو الأخر على قمة أعلى برج بالحمراء، و كان في نفس الأونة منذ ألف و أربعمائة و تسعة و خمسين عاما قد علا صليب المسيح في كلغوطا[15] رامزا للفداء و لانعتاق الجنس البشري !!!...

14- الاسم القديم لجبل الفتح أو جبل طارق الذي احتفظ بهذا الاسم تكريما للقائد المسلم طارق ابن زياد الذي أنزل قوات الخليفة الأموي في هذا الموقع عام 711م عند فتحه للأندلس.

15- تعني في الأرامية موضع الجمجمة و هو جبل الجلجلة أو الجماجم و يقع في ضاحية أورشليم حيث ذكر أنه صلب السيد المسيح، و مصدر هذه التسمية جاء من الصخور الموجودة على هيئة جماجم في أحد جوانبه.

و دخلت إيسابل و زوجها فرناندو إلى غرناطة مظفرين و سلم لهما الملك المسلم مفاتيح القصر و الحصون، فأذنا له بالانزواء بالجزء الكبير من ثرواته في إمارة صغيرة تقع في جبال البشارات لكنه ما لبث أن تركها ليذهب إلى إفريقيا للموت مع إخوانه في الدين[16]. و كان عند خروجه قد وقف على ربوة و شاهد عاصمته لآخر مرة و أجهش بالبكاء، فقالت له السلطانة والدته وهي حانقة عليه لضعفه: ابك، ابك مثل امرأة على ضياع مملكة لم تعرف كيف تموت كرجل في الدفاع عنها. و التحق الملكان بمدينة غرناطة ذات المائة برج و التي استولى الجيش المسيحي على أبوابها الأربعة عشر، فتجولا بين شوارعها المقفرة و بجانب دورها المقفلة وسط ذهول المغلوبين و احترازهم و في سكون مرعب مثلما هو مهيب، ثم سلما مفاتيحها إلى الكونت دي طندييا و عادا أدراجهما نحو معسكرهما في سانطا في لأجل التهييئ للدخول العلني و الرسمي الذي تم في يوم 5 يناير بعد ثلاثة أيام. و قد شاركت معظم أوربا فرحة إسبانيا و أقيمت أفراح عظيمة بهذا الحدث السعيد و الهام و قام البابا ألخاندرو السادس بمنح لقب الملكين الكاثوليكيين لفرناندو و إيسابل و هو اللقب الذي عرفا به في التاريخ و نقلاه إلى خلفهما. و لم يكن فتح غرناطة انتصارا مجيدا لإسبانيا فحسب و إنما لسائر البلدان المسيحية، و برز في إطار الصراع السياسي الدائر بين الديانتين كمعادلة لفقدان القسطنطينية التي فتحها المسلمون الأتراك عام 1453.

16- هو أبو عبد الله محمد آخر ملوك المسلمين في غرناطة من أسرة بني نصر دعي الزغابي و سماه الاسبان «تشيكو» و «بوعبديل»، لم يستطع مواجهة الضغط المتزايد على مملكته من طرف الملكين الكاثوليكيين فسلم غرناطة دون قتال بموجب معاهدة علنية أبرمت في 25 نوفمبر 1491، و استقر في منفاه بالبشرات في قرية أندراش ثم غادرها للاستقرار في المغرب بعد أن ظهرت خيانة من أوكل اليهما ابرام معاهدة الاستسلام، و نزل بمرسى غساسة و منها انتقل الى فاس حيث كانت وفاته سنة 1533.

6

التنصير القسري للمسلمين

– أصل الموريسكيين

– امتيازات المسلمين في بلنسية.

ظل المسلمون بعد استسلام غرناطة و إبرام الاتفاق الشامل والرسمي الذي خوله إياهم الملكان إيسابل و فرناندو شريكين من زاوية ما في القومية الإسبانية مع احتفاظهم بشكل واضح بديانتهم و شرائعهم و ألبستهم وعاداتهم و تقاليدهم، إلا أنه منذ يوم 5 يناير الذي شهد الدخول الرسمي للملكين الكاثوليكيين إلى غرناطة شرع في نقض الإتفاق و خرقه، فقد ابتعد أحد النبلاء و يدعى دون بدرو غرسيا دي آفيلا عن الموكب الملكي و توغل بداخل المدينة و أفرط في ظلم المغلوبين البؤساء الذين اشتكوا من شططه، فأصدر الملك فرناندو حكما ضده بعقوبة الموت إلا أن الحكم لم ينفذ و بقي المذنب في خدمة الملكة متمتعا بحظوتها. واستولى الملكان في يوم 5 يناير نفسه على جامع الطيبين و هو أحد المساجد الرئيسية بالمدينة و خصصوه للعبادة المسيحية استشهادا بسان سلفادور. و أظهرت إيسابل حماسا كبيرا في سبيل نشر العقيدة و لو لم يكن الملك أقل ورعا لأن الحذر فتر من حماسه، و كانا قد أذعنا منذ سنوات لمطالب الإكليروس وللروح المتعصبة للعامة فأنشأ عام 1480 بمقتضى إذن البابا سيكسطو الرابع محكمة التفتيش لأجل ردع تطاول اليهود و جسارتهم إلى أن أثاروا ضدهم ضجة عامة. و كانت محكمة التفتيش موجودة في كل من فرنسا وإيطاليا

و قد سعى البعض من وراء تأسيسها إلى البلوغ لمجمع فيرونا المؤسس عام 1184 و الذي كانت تصدر منه الأوامر إلى الأساقفة مباشرة أو عن طريق مندوبيه للقيام باستقصاء أو بتفتيش جميع الأشخاص المشكوك في إيمانهم لكي يتم عقابهم روحيا أولا و يعرضوا العقوبات دنيوية إذا لم يكف ذلك.
و قد دمرت محكمة التفتيش التي أقامها الملكان الكاثوليكيان في إسبانيا سعادة الشعوب لمدة طويلة و أخمدت روح العبقرية و التنوير بطغيانها الشنيع، و قد لقي إقرارها عراقيل كبيرة خصوصا في أراغون حيث وقع اغتيال أحد المفتشين في سرقسطة بنفس المعبد لترهيب الآخرين، إلا أن كل ذلك ذهب سدى فالمؤسسة الجديدة الموجهة بالأساس ضد اليهود والمسلمين كانت متوافقة زيادة عن اللزوم مع الفكر اللامتسامح والتعصب الديني لدى القسم الأعظم من الإسبانيين كي لا تنجح تلك المحاولات، حتى أن لقب خادم محكمة التفتيش الذي يحمل في طيه الإعفاء من كل التحملات النقدية إزاء البلدية بات مطلوبا بشكل مريب بحيث أنه في بعض المدن كان عدد خدام محاكم التفتيش يفوق عدد السكان القاطنين الأمر الذي جعل البرلمان يتدخل لتنظيم تخويل هذه الألقاب، و كان الكبراء المتعجرفون أنفسهم الذين جعلوا الملوك يرتجفون منهم يفتخرون بالمهام الجد حقيرة التي يمارسونها بمحاكم العقيدة السفاحة تلك، و قد حكوا أن لقب مأمور قضائي بالمحكمة كان من بين أبرز ألقاب الشرف ! ! .. و هكذا فعندما تكون أمة بمثل هذا الاستعداد فليس لنا أن نندهش من كيف استطاعت أن توجد محكمة التفتيش أو نتحقق من عمليات الطرد الحاشد لآلاف السكان الماهرين و المجدين، بحيث أصبح الجزء الأكبر من البلاد خاليا من السكان و غدت الحقول مقفرة و أمست الصناعة مخربة.

و هذا التعصب المجسد في المزاج الإسباني جعل بعض الأساقفة والشخصيات السامية يحاولون بحماس طائش إقناع الملكين الكاثوليكيين بأن يستغنيا عن الإتفاق الرسمي و عن الإحترام الموجب لتعهداتهما و عن يمين الوفاء و يرغما مسلمي غرناطة حالا قبول التعميد أو بيع أملاكهم والهجرة إلى إفريقيا، وقد تمت مناقشة هذا المشروع في مجلس الملكة و الذي كان التعبير عنه وحده بمثابة إهانة للوفاء تجاه تلك الأميرة الكاثوليكية. و برز الراهب الدومينيكي الشهير طوماس دي طوركيمادا المفتش العام الأول و المعرف السابق لإيسابل كمدافع غير متوقع عن حرية المعتقد فهو كان يعلم من خلال ممارسة مهامه الرهيبة بأن كل ردة مفروضة لدوافع دنيوية لا تصلح إلا لصنع المارقين و إدامة الرياء المدنس في الذريات للأشياء المقدسة عند القساوسة.

و كان الملكان الكاثوليكيان اللذان استنفدا كل موارد إسبانيا في حرب العشر سنوات الطويلة ضد مملكة غرناطة قد عقدا العزم على عدم القطع كليا و بسرعة مع الاتفاقات و تيقنا من أن كل خرق للمعاهدة سيولد خروقات أخرى، و بأنه إن ظلت الأمور على حالها فمعاهدة غرناطة ستتمزق بمرور الوقت فصلا بفصل و حتى ينفذ ذلك المشروع الذي استمال حماس الملكة المتقد ظهرت الحاجة للرجال و للمال أكثر مما تطلب فتح غرناطة. و كان المسلمون لا يزالون منظمين و مسلحين في البشارات مع ملكهم أبي عبد الله الذي عاد ليرأسهم، و أنهم ما إن يروا أنفسهم مهددين في المقدس لديهم إلا و يصيرون أكثر ثباتا و عزما مما كانوا عليه في وقت لم يمنعهم حب الوطن و الخوف من العبودية من التطاحن فيما بينهم.

و لأجل تهدئة مطالب الأساقفة و لإرضاء التعصب المستنفد للصبر لدى بعض الأعيان و مداهنته عند العامة و لربما أيضا لأجل القيام باختبار،

فإنه صدر في يوم 30 مارس عام 1492 مرسوم بغرناطة يأمر اليهود بمغادرة إسبانيا في أجل ثلاثة أشهر و إلا فإنهم سيتعرضون لطائلة الموت و مصادرة ثرواتهم و حظر عليهم حمل الذهب و الفضة معهم. و هكذا اضطرت مائة وسبعون ألف عائلة كانت تشكل ثمانمائة ألف نسمة من سكان إسبانيا إلى بيع ممتلكاتها باستعجال و الفرار نحو البرتغال و إيطاليا و شمال إفريقيا بل وحتى المشرق، و شوهد آنذاك من كان يسلم داره من أجل الحصول على فرس، أو شجر كرم و زيتون من أجل قطعة قماش أو نسيج، و كان هذا الطرد أول ضربة رهيبة ذهبت بسكان إسبانيا و بصناعتها.

و اعتقد الملكان أنه بإمكانهما إقامة أبرشية في مدينة غرناطة لفائدة السكان الجدد من المسيحيين الذين وفدوا على الإقليم المفتوح و كذلك لأجل تنصير المسلمين بدون أن يحدث انتقاض للاتفاقات. و كانت الملكة إيسابل قد منحت كرسي المطرانية لمعرفها الراهب هرناندو دي طالافيرا أسقف آفيلا حيث كان يوجد كرسي أسقفي في غرناطة قبل الفتح الإسلامي فرأى الملكان الكاثوليكيان في إعادته إلى مكانه وسيلة سياسية لضم المسلمين إلى بقية إسبانيا عن طريق الديانة المسيحية، غير أنهما رفضا إكراه المسلمين بالقوة على اعتناق المسيحية و التزما باحترام عاداتهم بل وسمحا لهم بارتداء اللباس الحريري في الوقت الذي كان يحظر فيه على رعايا الملكة استعمال هذا النوع من اللباس بغرض محاربة البذخ الذي هيمن في تلك الفترة. و كان إقامة أسقفية كاثوليكية في غرناطة يعني إحداث إرسالية مسالمة.

واضطر فرناندو و إيسابل إلى الرحيل نحو كاطالونيا حيث جذبتهما المفاوضات السياسية القائمة مع فرنسا و تركا المهمة النبيلة للمحافظة على فتحهما بيد القائد العام دون إنييكو لوبث دي مندوثا الكونت الثاني لطندييا الذي أظهر نفسه كحام حازم للمسلمين، و المطران الجديد الراهب

هرناندو دي طالافيرا، و جعلا السهر على الاحترام الصارم للاتفاقات وتأويلها بيد الكاتب فرناندو دي ثافرا. و كان الراهب خرونيمو هرناندو قد نشأ في بيئة جد متواضعة في طالافيرا و تمكن بصلاحه و بعلمه من بلوغ مرتبة معرف الملكين الكاثوليكيين و أسقف آفيلا في نفس الآن، فاتحد مع الفارس النبيل كونت دي طنديا و شكلا معا حسب تعبير أحد الإخباريين من تلك الفترة روحا في جسدين، و نظرا لكونه مسيحيا ثم أسقفا فإنه كان ينظر إلى الفضيلة الروحانية لدى البلدان المفتوحة حديثا، و كانت كل رغبته و الهدف الأسمى لأمانيه أن يتم تنصير المسلمين، ومع أنه في سن متقدمة فقد تعلم العربية بنفسه و أوصى رجال الإكليروس بدراستها و قام بتعريب الكتاب المقدس و الطقوس الدينية و أصول العقيدة المسيحية حتى يصلحوا قاعدة للتعليم الذي كان يسعى لتلقينه للمسلمين، و كما وزع بينهم مداخيله و نشر فيهم نقاء عاداته فجلبت دماثته الملائكية الشعب الخاضع تدريجيا إلى المسيحية، و ازداد أعداد المسيحيين الجدد يوما عن يوم، فلم يكن أحد محبوبا في غرناطة أكثر من طالافيرا فقيه المسيحيين كما كان يسميه المسلمون، و قد دعم الملكان مهمته بالمنافع التي أغدقوها على المتنصرين. و هكذا مضت سبع سنين هادئة و هنيئة على مسلمي غرناطة حيث كان النبلاء الموقرون الثلاثة طنديا و طالافيرا و ثافرا الذين أبقاهم الملكان الكاثوليكيان في غرناطة قد وضعوا أسس السلم بين شعبين خصمين كانا متباغضين دائما و شرعا الآن في محو أحقادهما القديمة. و انتقل الملكان الكاثوليكيان إلى غرناطة بعد مغادرتهما برلمان أوكانيا في سبتمبر 1499 فعاينا ذلك الشعب الذي أخضعاه من قبل سبع سنوات، و حملا معهما مطران طليطلة الراهب الشهير فرنسيسكو خيمنث دي سيسنروس الذي ائتمنته الملكة إيسابل على توجيه ضميرها بعدما افترقت في غرناطة عن معرفها القديس الراهب

هرناندو دي طالافيرا. و كان سيسنروس هذا أحد تلك الأمزجة العجيبة التي قلما تظهر في العالم، فهو ابن الشعب كرس نفسه للمهنة الكنسية وفضل ظلمة الدير و اتخاذ الثوب المتواضع للراهب فرنسيسكو دي أسيس على تولي المهام السامية التي كان بإمكانه التطلع إليها، و قد لفت تقشفه وعبقريته في نفس الآن انتباه إيسابل التي كانت تعرف كيف تميز كل ما هو عظيم فاختارته ليكون معرفا، و عبثا حاول أن يقاوم فاستسلم لكنه احتفظ بصلابة طبعه حتى داخل البلاط و بالتقشف الشديد لرجل الدين. و عين مطرانا على طليطلة و هو المنصب السامي في الكنيسة حينذاك بعد مرتبة البابوية، فاستلمه بعد أن رفضه لأن البابا أكرهه عليه. وكان كلما حاول الانعزال بنفسه إلا و درس اهتمامات البشرية و مقاصدها أكثر، وسيطر بموهبته على عواطف الرجال بدون أن يقبلوا بعاداته. و كان وزيرا لدى إيسابل و فرناندو فأظهر في الحكم رغم صلابته مواهب فائقة في الإدارة، و أمانة لا ترتشي و نزاهة و تعلق خالص بإسبانيا و حضارتها.

و ذهب الملكان الكاثوليكيان إلى إشبيلية في نوفمبر من عام 1499 و تركا سيسنروس بغرناطة بقصد مساعدة طالافيرا الورع في المهمة المقدسة لتنصير المسلمين و أوصيا الأسقفين بمواصلة منهاجهما للوداعة الذي تبناه طالافيرا. و كان سيسنروس قد عمل من قبل على إحداث قانون 31 أكتوبر 1499 الذي لقي ثناء الجميع لاعتداله و الذي بموجبه يحظر على المسلم حرمان ابنه من الميراث إذا ما تحول إلى الكاثوليكية، و يخصص إنعامات من مصاريف الدولة و من المداخيل المتأتية من فتح غرناطة للفتيات المسلمات اللواتي يتحولن إلى عقيدة المسيح، و أوصى أيضا بافتداء المملوكين المسلمين المتنصرين بمصاريف بيت المال العام.

و عندما خرج الملكان من غرناطة منح خيمنث دي سيسنروس نفسه سلطة مطلقة لم يذكر التاريخ بأي منصب، أجل كانت اغتصابا فالصيت

الذي كان يتمتع به لدى الملكين و عند الشعب يكفي لتفسير كيف لم يعترضه أحد. و رضي المطران هرناندو دي طالافيرا بالمشيئة الإلهية بحيث أن الأمر الوحيد الذي كان يهمه هو تشريف الإله بإنقاذ الأرواح و ليس الانفراد بالسلطة في أبرشيته، أما مطران طليطلة فكان أكثر تأثيرا و أقل تساهلا من مطران غرناطة إذ شرع في عملية تنصير المسلمين بنفس الطرق التي أعطت أحسن النتائج لطالافيرا، و لكن بتضليلهم حتى يجديهم بفعل أكثر إعدادا فاستدعى إلى قصر القصبة كبار الفقهاء المسلمين وكذلك علماءهم و أثار معهم مجادلات دينية و جعلهم يلمحون أفضال الحكومة إذا ما اعتنقوا المسيحية أو شدائدها إذا هم استمسكوا بالاحتفاظ بعقيدة الإسلام. و لكي يزيد من تأثير وعوده فإنه قدم إلى أكثر الأغنياء فسقا هدايا من نسيج و أثواب من أرجوان و حرير على عادة المسلمين أو من أثاث و أزياء على النمط الإسباني. إلا أنه رغم الموارد الوفيرة في أسقفيته فإن المطران خيمنث دي سيسنروس لم يقدر على تحمل مثل هذا السخاء دون أن يرهن إيرادات أسقفيته لسنين عديدة من بعد، و مع ذلك تم إطراء هذا السخاء المسرف لأسقف طليطلة بحماسة. و قد جر تنصير عدد مهم من الفقهاء وراءه ردة كثير من المسلمين الذين بعثوا إلى سيسنروس ملحين على استحقاقهم لمكافآت عظيمة،و كان عدد المهتدين حديثا بهذه الطريقة كبيرا لدرجة أنه في يوم واحد و هو يوم 18 دجنبر 1499 قام سيسنروس بتعميد أربعة آلاف شخص في كنيسة السلفادور. ومثلما في الوعظات الكبرى فإن سيسنروس أعطى هذه الإشارة الحسية عن طريق الرش و ليس الغسل، و أرخ منذ ذلك اليوم بافتخار تنصير غرناطة وأقيم احتفال سنوي لتخليد هذه الذكرى في كل من غرناطة و طليطلة موافقا للذي يحتفل فيه بمشهد مخاض مريم العذراء. و كان قسم كبير من سكان غرناطة قد تبنوا المسيحية في وقت وجيز و بدأ يقدم

مظهر مسيحي بالكامل، و حينئذ أخذ يسمع صوت النواقيس الذي منعه المسلمون تحت طائلة الغرامة و دعي المطران دي سيسنروس الذي يعود إليه هذا التحول من قبل المسلمين الفقيه مدق الأجراس.

و أدت مثل هذه النتائج بالضرورة إلى ردة فعل من طرف المسلمين الغيورين، فبينما تخلى بعض الفقهاء هكذا عن رسالة الإسلام فإن آخرين و معهم الوجهاء شاهدوا بألم عميق الدمار الذي يتهدد عقيدة آبائهم فسعوا إلى الحيلولة دون هروب إخوانهم نحو المسيحية، لذا حاولوا وعظ الناس بالإخلاص لدين محمد إلا أن مواعظ فقهاء الشريعة الإسلامية كانت محظورة بموجب قوانين قشتالة في القانون الثاني بالقسم الخامس و العشرين من الكتاب السادس من التقييد السابع. و كانت غرناطة مع ذلك تحت نظام استثنائي، فعند تسليمها لم يستوعب المسلمون بأنه صار محظورا على فقهائهم تثبيتهم باللفظ في دين محمد لذا حاولوا الاعتراض باللجوء للمحاكم، فقام سيسنروس الذي لا تردع عريكته أمام أي نوع من المعارضة بسجن الذين رفعوا صوتهم عاليا متجاوزا بحماسه الطائش حدود المعاهدة المعقودة بين التاج الإسباني و المسلمين، و شرع يعلم المسجونين بالقوة العقيدة المسيحية بواسطة قساوسة خصوصيين و يعامل بعنف شديد أولئك الذين يقاومونه و منهم الثغري «الزعرور»[17] المسلم الثري و الأنوف و من أبرز الذين شاركوا في الحرب و هو سليل عائلة ابن الأحمر الشهيرة التي مدحها الشعراء و حظيت بمكانة كبيرة بين

17- اشتهرت أسرة الثغري بهذا النسب و أصلها من فاس، وكان ظهورهم في الامارة النصرية في القرن الرابع عشر على يد بني مرين حيث طوروا نشاطهم في ثغر رندة الحربي و منه اشتق نسبهم. و برز الثغريون في حرب غرناطة (1492-1481) في الجانب المتشدد المعارض لكل اتفاق و مصالحة مع ايسابل و فرناندو. و كان أحدهم و يدعى حامد الثغري آخر قائد مسلم لمدينة رندة، و انتقل بعد سقوطها الى الدفاع عن مالقة ببسالة الى أن سقط أسيرا. و جعل شح المعلومات عن هذه العائلة المؤلف و غيره يقعون في الخلط بين أفرادها، ففي سنة 1500 كان على رأس العائلة ابن أخيه محمد «الزعرور» الثغري الذي تنصر تحت اسم محمد فرناندث الثغري، و ابنه الذي عمد باسم غنثالو فرناندث الثغري تحت رعاية القائد الكبير غنثالو فرناندث دي قرطبة و أصبح أحد الفرسان الأربعة و العشرين للمجمع الديراني بغرناطة.

باقي العائلات، و كان قد تم حبسه في زنزانة و قام قسيس يدعى بدرو ليون مكلف بتنصيره بوضعه في الأصفاد و تجويعه و معاملته بقسوة حتى حطم غطرسته و اضطره إلى طلب العماد بذل حقيقي من الذي أقنعه بالدين بأسلوبه ذاك، فكان يقول إن سيسنروس ليس عليه إلا أن يطلق أسده حتى يصير المسلم الأكثر عنادا متنصرا في خلال أيام قليلة. و أخذ الثغري عند تنصيره اسم غنثالو فرناندث في ذكرى نزال خاضه سابقا ضد غنثالو فرناندث دي قرطبة في سهول غرناطة، و أظهر طيلة حياته دفاعا و غيرة على الديانة المسيحية و انضم في ولاء لا ينثني إلى خيمنث دي سيسنروس الذي استخدمه في كثير من الشؤون التي تتطلب غيرة شديدة و تبصرا تاما. و قد أحدث تنصره و كلماته تأثيرا عميقا أدى إلى إسراع العديدين لاعتناق المسيحية، و جعلت النتائج المحصلة الأسقف خيمنث يحسب الأمل في اجتثاث الإسلام من غرناطة أضحى وشيكا، و يستخف من أولئك الذين ينتظرون المستقبل ليتحقق الانتصار الكامل للدين، فكان يعتقد بأن التمهل و الانتظار يعني جعل الفرد مذنبا مع المسلمين بهلاك أرواحهم الأبدي. و أراد أن يبيد الإسلام بضربة واحدة فقام في وسط الساحة العامة بباب الرملة من غرناطة بإحراق كل الكتب العربية التي استطاع جمعها من المكتبات العامة و الخزانات الخاصة و التي سلمها له الفقهاء بدون أن يعيرها أدنى اهتمام بما كان يحويه بعضها من آثار ثمينة لعلم الخط و عجائب التنميق و آيات التسفير، و لم ينج من لهيب النيران سوى ثلاثمائة تأليف في الطب أودع في جامعة القلعة فيما بعد، و هكذا أفنيت الكنوز الفكرية لأمة بأسرها في يوم واحد و لم يعد المسلم الغرناطي منذئذ قادرا على نقل أبسط معلومة عن أمور زمانه إلى نسله. و يقول كوندي و هو من أعلم المستشرقين بأن عدد المجلدات المحروقة فاق ثمانين ألفا، و يثير هذا الفعل حساسية أكثر إذا قورن بالحريق الذي شب بمكتبة الإسكندرية

من قبل الخليفة عمر[18]، لكونه ارتكب من طرف شخص ليس فظا أو جاهلا و إنما أحد كبار أصدقاء العلوم و بالخصوص في وقت كان قد قام فيه ببناء جامعة جديدة اعتمادا على موارده الخاصة في قلعة النهرين...

و اغتاظت نفوس المسلمين الذين شعروا بالذل و أعلنوا بصوت عال بأنه تم نقض التعهدات الملكية و التنقيص من الامتيازات التي منحت لهم. و قد نما هذا الحقد بسبب الطرق التي سلكها سيسنروس في حق المرتدين وأبنائهم و الذين كان المسلمون يدعونهم بالعلوج، و كان قد خول سلطات خاصة من طرف المفتش العام الراهب دييغو دي دثا مطران إشبيلية الذي خلف طوركيمادا الشهير، فكان يعتقد بأن الكنيسة بإمكانها أن تستعيدهم بالقوة لكونهم من أبناء المرتدين المسيحيين من جانب، ومن جانب آخر كانوا ينزعون منهم لأجل تربيتهم على الديانة المسيحية ضدا على إرادة آبائهم. و هكذا تراكم الحقد في قلوب المسلمين حتى بات قابلا للانفجار بين لحظة و أخرى.

و حدث أن إثنين من ملازمي المطران سيسنروس ممن كانوا يعتقلون المسلمين يوميا و يسيئون معاملتهم ذهبا إلى البيازين لاقتياد فتاة علجية تعمل خادمة نحو السجن، و على إثر صراخ تلك الشقية أسرعت جماعة من المسلمين لتخليصها منهما فوقعت مشادات مع المأمورين اللذين كالا القوم عبارات سفيهة و سليطة مما أثار حفيظتهم و هياجهم، و تمكن أحدهما من الفرار و الانفلات بجلده بينما بقي الأخر أقل حظا

18- يعد تدمير مكتبة الاسكندرية أحد الألغاز الكبرى للحضارة الغربية فهو خال من الوثائق الدقيقة عن مظاهره الأساسية و كما لم يتم العثور على آثار دمار المتحف. الا أنه من المؤكد أن اختفاءه كان قبل مجيء الفتح الاسلامي خلاف ما روجه البعض من أن الخليفة عمر ابن الخطاب هو من أمر باحراق آلاف المخطوطات. و حسب المصادر الغربية نفسها فان نهاية المكتبة تكون قد وقعت في فترة غير محددة من القرن الثالث أو الرابع الميلاديين و ربما في سنة 273 لما احتل الامبراطور أورليان المدينة و قام بنهبها أو في عهد خلفه ديوكليسيان عام 297. و يشير مصدر آخر الى أن شرذمة من المتعصبين دينيا مدفوعين من طرف مطران الاسكندرية سيريل قاموا باحراق المكتبة و قتل محافظتها هيباتيا عام 415م، و أن المطران المذكور لقب منذئذ بسان سيريل.

حيث سقط مفلطحا تحت ثقل حجر قذف به من نافذة. و كان هذا الحادث بمثابة إذكاء للثورة في ربض البيازين الذي كانت توجد فيه خمس ألف دار يقطنها المسلمون فحسب، فبادروا إلى حمل السلاح و أسرعوا في جلبة كبيرة نحو القصبة حيث يقطن سيسنروس معززين بمسلمين أتوا من أماكن أخرى بالمدينة بهدف القضاء على ظالم حريتهم و سالبها و رجاله.

و لعل هؤلاء المسلمين كانوا قبل أيام قد أثنوا على سخاء الأسقف في نفس الشوارع التي غدوا يقطعونها مزمجرين و تائقين لهدر دمه، أما هو فأظهر رباطة جأش بطولية كشفت عن مزاجه و رد على الذين حاولوا المضي به عبر طريق سري نحو قلعة غرناطة الحمراء الشهيرة بأنه سينتظر إكليل الاستشهاد في مكانه و لن يتخلى أبدا عن الذين عاهدهم و قد أثار بكلامه حماس المقاومة في رجاله، و هكذا أحكم بحذر و بهدوء تام استعدادات الدفاع عن داره فتمكن من صد هجومات السكان أثناء الليل، و في الغد أتى النبيل الكونت دي طنديا بمائتين من القواسين من الحمراء أنقذوا المطران من الخطر المحدق به و حملوه إلى القلعة إلا أن الثورة استمرت تسعة أيام. و قد لاحظ الكونت الخطر الكامن في التساهل و في تعذر العمل حيث وجد نفسه فيه، فرأى بعد أن قام بتعداد قواته أنه من الحكمة التفاوض مع الثوار، فأرسل إلى البيازين ترس سلاحه مع مرسوله برهانا عن السلم لكنهم جرحوا المرسول و رجموا الترس و تحصنوا في الخنادق بالأماكن التي كان أبو عبد الله قد تحدى فيها والده و عمه زمن الحروب الأهلية، و ظنوا أنفسهم أسيادا ليملوا شروطهم ثم شكلوا بلا استعداد حكومة من أربعين من كبراء القوم لتسيير الحركة بشكل منظم. و قام الملك الحقيقي في غرناطة آنذاك و هو سيسنروس باستدعاء الفقهاء من جديد و حاول تهدئة الحشود بكلمات ودية إلا أن الهيجان لم يهدأ، فسعى عندئذ المطران الراهب هرناندو دي طالافيرا في محاولة سارة مثلما

هي خطيرة بأن حضر واثقا من صيت اسمه وسط الشراذم الغاضبة من المسلمين مرفوقا بأحد القساوسة الذي كان يحمل أمامه الصليب المختص بالمطرانية، و اقتداء بالبابا سان ليون عند خروجه للقاء أتيلا فإنه دخل مترجلا معسكر الثوار الكفار بمظهر مطمئن و هادئ كأنه ذاهب للوعظ بحقائق العقيدة لرجال راغبين في خلاصهم. و إن رؤية أسقف بهذا الوجه البشوش و بهذا المقدار من الحب العام قد سكنت على التو هياج أولئك الأقوام الثائرين الذين تجمعوا من حول القديس فقيه المسيحيين لكي يقبلوا حاشية ثوبه بوقار.

و استغل الكونت دي طندييا ذلك الهدوء المؤقت وسط إعصار هائج ليحضر هو أيضا أمام الحشد كرسول للسلام و ليظهر نواياه الحليمة، ولدى وصوله إلى الساحة العامة رمى برنيطه القرمزي فردت عليه العامة بهتاف ينم عن فرح عظيم. و قد أظهر هذان الرجلان الشعبيان للمسلمين آنذاك مدى بطلان مشروعهم ضد كل قدرات إسبانيا و أنه لا يمكن إلا أن يكون مصدر المصائب بالنسبة لهم فحسب بينما إذا خضعوا فورا فإن الكونت والمطران سيستعملان تأثيرهما حتى يظهرا أنهم إنما ثاروا لصالح التعهدات الملكية فقط، و حتى يثبت الكونت صدق نواياه فإنه ترك زوجته و طفليه رهائن في البيازين.

و قد ظل الناس هادئين و ساكنين و قدم القاضي ترضية إلى الحكام المسيحيين عندما أمر بهدم المتاريس و تسليم أربعة من المتهمين في اغتيال مأمور المطران ثم محاكمتهم في وقت وجيز و شنقهم. و تلقى الملكان الكاثوليكيان أخبار حوادث غرناطة بكدر شديد جعلهما يريان ضياع ثمرة عدة حروب دامية و مجهود عديد من السنوات. و لكن سيسنروس رحل إلى إشبيلية و دافع عن أفعاله بكثير من الفصاحة و الحذق استحقا استحسان الملكة إيسابل و ثناءها مما ضاعف من الحظوة التي أحاطتها بمعرفها

هذا، ثم بعثت بعد مشورته بقاض منتدب ليعرض على سكان الربض الثائر الاختيار بين أمرين قبول التنصير أو العقاب بتهمة الخيانة العظمى، فكانت نتيجة هذا الإجراء الذي ديست فيه علنا عقيدة المتعاهدين أن كاد جميع المسلمين بالمدينة و ضواحيها يمرون إلى المسيحية، بينما فر البعض منهم نحو شمال إفريقيا و الأخرون لجأوا إلى التحصن في قمم البشارات الوعرة معلنين أنهم في ثورة مفتوحة و مشهرين راية ملوكهم القديمة لأجل الدفاع عن عقيدة أسلافهم. و لم تنفع الالتماسات و لا وعود القائد العام والمطران طالافيرا و كما لم تجد نفعا الرهائن العزيزة على قلب الكونت دي طندييا التي سلمها بشجاعة إلى المسلمين في ثني العناد الصلب لإيسابل و فرناندو الذي يتباين مع تمالك النفس العجيب الذي أظهره مسلمو غرناطة و بصيرتهم لما أعادوا الرهائن الثمينة إلى حاميها ناجية وسالمة عن تعهد صريح و لكن طائش.

و قد نظر الملكان الكاثوليكيان إلى هذا التنصير الظاهري و المتكلف حيث عاش الإسلام دائما في قلوب أولئك الذين كانت شفاههم تبوح باسم المسيح كإجراء سياسي لا يمكن انتظار نتيجته في الجيل الحاضر و إنما في الأجيال القادمة.

و كان المؤرخ الأمريكي الحديث و الشهير بريسكوط قد أصدر حكما قاسيا في كتابه حول تاريخ فرناندو و إيسابل في حق سيسنروس بسبب هذا التنصير المكره للمسلمين و أطلق على طريقة عمله **محفة حل القضايا على ضوء الفتاوى و الأحكام الرهبانية السابقة** لأنها تعللت بثورة المسلمين كباعث صحيح لخرق المعاهدة. و قد ارتكز المطران سيسنروس على كون المسلمين هم الأول في نقض الاتفاقات بثورتهم، و بأنه لا توجد حكومة ملزمة بالحفاظ بمنافع لرعايا ثائرين كان بالإمكان تخويلها إياهم في حالة خضوع سلمي و مخلص.

و هدد سلطان مصر والشام و فلسطين الذي استغاثه مسلمو غرناطة أثناء صراعهم مع المسيحيين بالانتقام بعدما شاهد الإضطهاد الديني في إسبانيا يكدر حياة إخوانه في الدين و بإرغام الأعداد الغفيرة من رعاياه المسيحيين في ممالكه باعتناق الإسلام. و للاحتراس من النكبة فإن الملكة إيسابل أرسلت إلى العاهل المسلم سفيرا فوق العادة هو العالم بدرو مارطير دي أنكلريا رئيس كنيسة غرناطة الذي أبان عن ألمعية كبيرة في مهمته العسيرة التي هدأت من روع السلطان و جعلته يترك للمسيحيين في ولاياته حرية معتقداتهم.

و فر كثير من سكان غرناطة و لاذوا بالبشارات حيث أرهبوا أبناء الجبال الذين لا يقهرون بأنهم سيتعرضون لنفس مصير العاصمة القديمة، فحملوا السلاح و استولوا على الحصون المتاخمة و حسب عاداتهم القديمة فإنهم قاموا بغزوات و بأعمال تخريب في النواحي التي يقطنها المسيحيون دون أن يفكروا في أن ذلك كان بالضبط الوسيلة لجلب المصيبة عليهم و التي كانوا يودون تفاديها.

و كان فرناندو و إيسابل قد حاولا التحذير من الثورة بواسطة الرسالة التالية التي بعثاها من إشبيلية :

«من دون فرناندو و دونيا إيسابل الخ. إلى سيادة علي دردوش[19] كبير قضاة المسلمين في الشرقية و الغربية، و إلى السادة القضاة و الحكام والشيوخ والصلحاء و المسلمين أتباعنا في مدن و قرى الشرقية و الغربية من أبرشية مالقة و جبال الرندة السلام و الصفح على كل واحد منكم. اعلموا أن لا صحة لما قاله البعض منكم من أن إرادتنا كانت هي إجباركم على الردة وتحويلكم إلى مسيحيين بالقوة، فإرادتنا ما كانت أبدا و لن تكون أن يتحول أحد المسلمين إلى المسيحية بالقوة. و نؤكد لكم في هذه

19 - قاد المقاومة في البداية ضد القشتاليين قبل أن يتفاوض معهم حول وضعيته كمدجن وسلم لهم القصبة في غشت 1487.

الرسالة ونتعهد بوفائنا و بوعدنا الملكي بأن لا نسمح و لا نتسبب في أن يرتد أحد المسلمين مسيحيا بالقوة، و نحب أن يكون أتباعنا المسلمون آمنين يحيون في عدالة تامة كأتباع و خدام لنا. تم في مدينة إشبيلية في سبع وعشرين خلت من شهر يناير عام 1500. - أنا الملك. - أنا الملكة. - أنا فرناندو دي ثافرا. الكاتب».

و قد جعلت تجربة باهظة المسلمين يتعلمون ما تكلفه كلمات الملكين، فهم لم يكفوا عن القتال لذا خرج الكونت دي طنديا باتفاق مع القائد الكبير غنثالو دي قرطبة المتواجد بغرناطة لمحاربة الثائرين و انتزع منهم حصن ولجر و كان غنثالو المذكور هو أول من تسلق السور، و تعرضت القرية لأعمال النهب و تم اقتياد ألفين و ثلاثمائة من الرقيق غنيمة نحو غرناطة مع الجثامين الدامية للثوار. و بالرغم من هذا التنكيل لترهيب أهل البشارات فإن الثورة استمرت مما اضطر الملك فرناندو الكاثوليكي نفسه إلى التوغل في البشارات بجيش قوي واستيلائه على قرية الأنجرون المزدهية و المعقل شبه المنيع بينما استولى القواد على معاقل أخرى بالتتابع و فرضوا على الثوار عقوبات فظيعة. و استسلم سكان جهات أخرى من البشارات مذعورين و واهني العزم بالتتالي خلال عام 1500 فعاملهم الملك الكاثوليكي بدماثة، و مع ذلك كان عليهم أن يسلموا سلاحهم ومعاقلهم الحصينة و أداء ضريبة حرب هائلة تحت اسم فرضة، و تمت في نفس الوقت مصادرة مداخيل و أوقاف المساجد لفائدة الكنائس و أخضع المسلمون لنفس الضرائب التي يدفعها القشتاليون و التي كانوا معفين منها بمقتضى معاهدة غرناطة، و كما أجبروا على استقبال المنصرين إلا أنه لم يرغم أحد على تلقي المعمودية احتراما بلا شك للرسالة الملكية التي بعثها إليهم الملكان الكاثوليكيان قبل ذلك بأشهر قليلة. و يقول بريسكوط : إن حكمة هذه الإجراءات المليئة بالاعتدال كانت تزداد

وضوحا كل يوم ليس بتنصير الجبليين المنعزلين فحسب و إنما بجميع سكان المدن الكبرى تقريبا كبسطة و وادي آش و ألمرية.

وكان الملكان الكاثوليكيان في بداية حكمهما قد قسما السلطة بينهما فاحتفظت إيسابل بالتوجيه المطلق للشؤون الكنسية و بحق تعيين الأساقفة الذي استعملته بحزم عاكست به رغبات زوجها و حتى البابا في كثير من المرات. و لم تكن لدى فرناندو الوسيلة لاعتراض مشاريع الملكة فيما يتعلق بمصالح الديانة فلم يستطع عرقلة إرسالها لمبشرين عن طريق مطران إشبيلية إلى المسلمين في البشارات و لا التدخل في التعليمات التي أعطيت لهؤلاء القساوسة. و من العجب أن هؤلاء المبشرين ما كلفوا إلا بالتحدث بلغة الإقناع لأن النجاح الذي حققه تبشيرهم بين هؤلاء الرجال الذين هبوا للحرب دفاعا عن القرءان كان مذهلا. و ذهبت الملكة إلى غرناطة في أواخر يوليو لتعجل بحضورها عملية التنصير ففي خلال ثلاثة أشهر الموالية تم تعميد سائر سكان البشارات و وادي آش و ألمرية و بسطة.

و أعلن في يوم 20 سبتمبر 1500 عن مرسوم ملكي بدل حكومة غرناطة و شكلها بصفة نهائية على نفس قاعدة بقية مدن إسبانيا، و نتج عن ذلك زوال الحكومة الأبوية للوجهاء الحكام الثلاثة طندييا و طالافيرا و ثافرا، و تم تأسيس بلدية و انتقال المحكمة العليا للمدينة-الملكية إلى غرناطة. و لم تكف هذه التدابير للحيلولة دون تفجر ثورة جديدة أكثر روعا في مكان آخر من الجبال الموريسكية، فقد قام سكان السلسلة القرمزية بغرب غرناطة و الغاضبين من ارتداد إخوانهم عن الدين في الشرق بالإنتقام بهدر دم المسيحيين فاغتالوا المبشرين نكاية في الاحتجاجات المسالمة للحكومة، و أرهبوا قرى الناحية بالنهب و الأسر و التقتيل، فزحف الملك فرناندو بنفسه إلى الثوار من جديد و اخترق المنطقة الجبلية و هزمهم، لكن قسما كبيرا من جيشه وقع تحطيمه في فجاج الجبال و مات

الأخ الأكبر للقائد الكبير دون ألونسو دي أغيلار في 21 مارس 1501، وكما سقط هنالك نبلاء آخرون كثيرون فلم يبق إلا القليل من العائلات النبيلة القشتالية لم يلبس الحداد حزنا على ذلك اليوم المشؤوم ! . . .

و لكن المسلمين ملأهم الذعر حينما فكروا فيما سيقع عليهم من الانتقام و تملكهم الفزع بالرغم من انتصارهم لما شعروا بتقدم الملك الكاثوليكي بناحية رندة في أوائل أبريل من نفس العام فطلبوا السلم. و مع أن فرناندو كان مجروحا بعمق في أحاسيسه عن القومية الإسبانية فإنه رأى بحصافته استحالة إخضاعهم بقوة السلاح فأوقف إراقة الدماء و سمح للذين رفضوا تلقي التعميد و العيش بين المسيحيين بالانتقال إلى إفريقيا و أمدهم بالسفن بقصد حملهم مقابل أداء عشرين دوكا عن كل عائلة إلا أنه لم يقبل على الهجرة سوى عدد قليل فقط عمل فرناندو الوفي لوعده الملكي على نقلهم نحو إفريقيا. و كان الجميع تقريبا قد صرحوا عن استعدادهم للتحول للديانة المسيحية و هكذا لم يعثر في وقت وجيز في سائر مملكة غرناطة عن مسلم واحد لم يتلق المعمودية، و أما بالنسبة للذين يوجدون في الأقاليم الأخرى من إسبانيا فإنهم ظلوا يمارسون عقيدتهم القديمة.

و قد حمل خلف المتنصرين من المسلمين القدماء منذئذ اسم الموريسكوس، و كانوا موضوع شفقة من طرف المصير اللاحق الذي احتفظ لهم به الدهر. و مع ذلك لا يمكننا نكران كونهم جلبوا البلية لأنفسهم أكثر من مرة بسبب استمرار ارتباطهم بالإسلام خفية و التآمر ضد بلدهم بشكل متواتر. و لقد انتصر نظام سيسنروس بالكامل وخصص له الملكان الكاثوليكيان كل حظوتهما و أسكناه بجانبهما في قصر الحمراء و التمسا منه النصح في الشؤون الأكثر سرية و أهمية.

و لما كان المسلمون لا يزالون في آفيلا و طورو و ثمورة و في أماكن أخرى من قشتالة فإنه صدر مرسوم في 20 يوليو عام 1501 يحظر على مسلمي غرناطة كل معاملة أو اتصال مع أولئك الذين لا زالوا لم يتنصروا بعد بأقاليم قشتالة لأجل حمايتهم من الوقوع في أخطار النكسة، و مع ذلك لم تكن هناك قناعة بأن ذلك كاف لاقتلاع الدين الإسلامي من جذوره، لذلك صدر في إشبيلية مرسوم في 14 فبراير عام 1502 نقل بالحرف عن قرار طرد اليهود المشهور يؤمر فيه جميع المسلمين غير المنصرين في ممالك قشتالة و ليون و الذين تفوق أعمارهم أربعة عشر عاما من الذكور و إثني عشرة سنة بالنسبة للإناث بالهجرة قبل متم شهر أبريل، و قد سمح لهم مثلما سمح لليهود من قبل بحق التصرف في أملاكهم شرط ألا يحملوا معهم قيمتها من الذهب و الفضة و ألا يهاجروا إلى أرض إفريقيا و تركيا اللتين توجد إسبانيا في حالة حرب معهما. و تلاه مرسوم آخر في 17 سبتمبر 1502 الذي لم يسمح لهم بالهجرة إلا نحو أراغون و البرتغال، و لكن لم يستعمل حق الهجرة سوى عدد قليل بينما أخذ العبرة القسم الأكبر من المشاق التي تكبدها اليهود الذين فضلوا ترك وطنهم عن التخلي عن دينهم، فتلقى المعمودية اقتفاء بالآخرين من غرناطة.

و بقي الإسلام مباحا في أراغون حتى عهد كارلوس الخامس على عكس غرناطة فقد أدرك النبلاء الأسياد الأراغونيون و البلنسيانيون مصالحهم جيدا و عرفوا أن بين غنى السيد و قناعة الأتباع يوجد ارتباط جوهري، فاستبقوا الخطط الاحترازية التي حاول فرناندو الكاثوليكي تغليبها في قشتالة دون جدوى بل وعملوا على استفزازها أيضا، و دفعهم تخوفهم من أن تجعل إيحاءات الملكة إيسابل لزوجها فرناندو يتراجع ويصدر أوامره بتنصير المسلمين بقانون شامل إلى الحصول منه على تعهد بعدم تغيير أي شيء بخصوص ما اتفق عليه في الجمعية العامة بأريولة

عام 1488 حيث تم بطلب من الهيئات الثلاث تحسين وضعية المسلمين، و وافقوا مقابل هذا الوعد على استقبال محكمة التفتيش التي طالما نفروا من قبولها في ممالكهم. و كان الأسياد الأراغونيون و البلنسيانيون في الجمعية العامة بمونثون سنة 1510 بعد وفاة الملكة إيسابل قلقين على مصير أتباعهم، فطلبوا مقابل تأدية ضريبة مائة ألف دوكا خصصت لحرب إفريقيا الحصول على المصادقة القانونية للتعهد الذي منحهم إياه الملك منذ ثماني سنوات خلت، فتم حينذاك إقرار امتياز جديد للمسلمين أعلن بموجبه أنه لا يمكن طردهم أو نفيهم أو رميهم من مملكة بلنسية و لا من المدن و الفساطيط الملكية بتلك المملكة و لا جبرهم على التحول إلى المسيحية. و أضاف الملك في هذه الوثيقة الجديرة بالذكر بأنه لا يرغب وهذه كانت إرادته في أن يوضع أي عائق أمام تجارة المسلمين و تعاملهم في المملكة المذكورة و لا في تعاقداتهم مع المسيحيين و بينهم لا من طرفه و لا من طرف خلفائه، و أن يتمتعوا بالحرية الواسعة و الشاملة. و توجد هذه الوثيقة المكتوبة بالبلنسيانو ضمن مجموعة قوانين بلنسية (قوانين الجمعية العامة لبلنسية).

و هكذا تم تكريس حرية العبادة الإسلامية في مملكة بلنسية كما تم عمل مماثل بالتمام في أراغون و بالضبط في الوقت الذي كان فيه الإسلام محرما في قشتالة. و قد تابع كل واحد من هذين الشعبين طريقه و اتبع تشريعه المتباين، و لكن ستدق الساعة التي سيظلان فيها مختلطين دائما و التي سوف يكتمل فيها ضم المملكتين و بالتالي تأسيس الملكية الإسبانية و سيستشعر الناس في بلنسية بالسيطرة المحتومة للقشتاليين.

7

النقابات في بلنسية – التنصير القسري للمسلمين.

لم تعكس السعادة النفسية للملكين الكاثوليكيين المجد الذي بلغاه في ملكهما، فموت ابنهما أمير أستورياش تلاه على التو هلاك أخته ملكة البرتغال عند النفاس في طليطلة حيث كانت قد أنجبت أميرا ما لبث أن تبعها إلى اللحد. فقد كانت دونيا خوانا التي تزوجت من فليبي المليح أرشيدوق النمسا و ابن مكسيمليان إمبراطور ألمانيا الابنة الوحيدة التي بقيت للملكين فرناندو و إيسابل و التي كانت وريثتهما على عرشي كل من قشتالة و أراغون.

و لم تستطع الملكة إيسابل هذه الملكة العظيمة التي هام بها الشعب القشتالي و التي أبانت لنبل طبعها المتحرر من التبعية لزوجها عن الصمود أمام المصائب التي ألمت بالعائلة و أفنى هزال قاتل وجودها ببطء، فالحالة الكئيبة للإبن الوحيد الذي فضل لديها و لابنتها الأميرة خوانا ملأت أيامها غما شديدا، و كما أفقدها عدم اكتراث أو تأثر الأرشيدوق زوج ابنتها كثيرا من صوابها. و الحق أن إيسابل يمكنها أن تتظلم كأم بأن كربها عادلت نجاحها كملكة. و انضاف إلى هذه الغموم مرض الصدر الذي أصابها مما أضعف بنيتها البدنية فماتت في مدريد عام 1504م عن عمر ناهز الثامنة و السبعين عاما، فبكتها رعيتها و أعجبت بها أوربا.

و ورثت خوانا بموت إيسابل مملكة قشتالة تحت وصاية فرناندو، لكن فليبي المليح الذي كان يسيء معاملة زوجته كثيرا مثلما كان محبوبا

لديها حضر إلى غرناطة مغضبا من حميه و انتزع منه كل السلطة، إلا أنه توفي عقب انحراف ألم به خلال ثلاثة أيام و هو في سن الثامنة والعشرين فحازت دونيا خوانا السلطة الملكية و لكن وفاة زوجها انتهت بها إلى فقدان رشدها بالكامل. و قد شاهدت إسبانيا آنذاك كل الأهواس و الشذوذ التي يمكن أن تحتمل في مخيلة امرأة هائمة فعملت على إخراج جثة زوجها من القبر و وضعه في حجرتها كما لو أنه حي يرزق، و السفر به و تفادي حضور أية امرأة بسبب الغيرة كما لم تأل جهدا في إظهار كل علامات الحب و الحنو إزاءه، و كانت التعسة تنتظر بكامل الثقة عودة زوجها يوما ما إلى الحياة. و قد ظلت دونيا خوانا على حالها عاجزة تماما عن الاهتمام بشؤون الدولة و احتفظ التاريخ لها بسبب مرضها المريع باسم! الحمقاء! فاستدعت غالبية القشتاليين دون فرناندو على استعجال ليتولى الوصاية على العرش في الوقت الذي كانت فيه قواته قد فتحت مدينة نابولي، فورد على قشتالة و نصب نفسه وصيا على عرشها ثم احتل نفارة بحجة أن الملك جان الثاني ألبرت رفض مرور القوات التي أراد إرسالها إلى فرنسا لأجل حرب الحلف المقدس فأصبح بذلك عاهلا على كل إسبانيا.

و كان هذا الملك يدرك مدى الضرر الذي سيلحق بإسبانيا إن هي باتت تحت سيادة أجنبية و قد تحسر كثيرا على تركه ميراثه الرائع في النمسا، وتزوج بدونيا جرمين دو فوا حفيدة لويس الثاني عشر ملك فرنسا حتى يحرم ابنته دونيا خوانا و ذريتها من عرش أراغون و نفارة واعتقد لحين من الوقت بأنه سيرى أحلامه تتحقق بميلاد ابنه لكن المولود انتقل في ظرف وجيز من المهد إلى اللحد، و طمح أيضا من خلال وصيته إلى تقييد إرث كارلوس ملك النمسا لكنه في الأخير تركه كوارث عام. و كان قبل موته في سن الرابعة و السبعين (1516) قد عين الكاردينال خيمنث دي سيسنروس وصيا على عرش قشتالة و ابنه غير الشرعي دون ألفونسو

مطران سرقسطة وصيا على عرش أراغون، و بموت فرناندو الكاثوليكي ورث حفيده كارلوس الذي لم يكن قد تجاوز سن السادسة عشر من عمره عروش كل من إسبانيا و نابولي و صقلية و سردينيا، و كان حينئذ مقيما في فلاندرة و لم يكن قد سبق له أن زار إسبانيا قط، و كان يتبع نصائح كل من غيوم دو كروا سيد كييفر و أدريان دو أوترخت نائب مطران لوباينا و هو ابن لحائك من نسب متواضع و كان قد رفعه فيما بعد إلى مرتبة البابوية.

و كان كارلوس هذا بمجرد ما علم بموت جده حتى أعلن من تلقاء نفسه في بروكسيل توليته ملك قشتالة و أراغون الأمر الذي كانت تعارضه قوانين إسبانيا بحيث أن الملكة ما فتئت هي أمه دونيا خوانا التي لم يصرح بعد البرلمان بعدم أهليتها، فعين أدريان وصيا على العرش ثم ما لبث أن عاد فأبطل توكيلات هذا الأخير و سلم للكاردينال خيمنث دي سيسنروس مباشرة النيابة عن الملك بالرغم من بلوغه عمر الثمانين عاما. و بذل سيسنروس جهدا كبيرا أفرغه في الميزان السياسي مثلما سيف برينوس[20] إلى جانب المجلس الملكي و النبلاء لتحقيق الاعتراف لكارلوس بلقب الملك فأصبح اسمه يلي اسم الملكة دونيا خوانا في كل المراسيم، و كما سعى لتثبيته في العرش ببأس و قوة إرادة و طاقة عالية لا تصدق في سنه المتقدم و ذلك ضدا على مزاعم الطبقة النبيلة، و كان يقول: «أنا سأقود جميع نبلاء قشتالة أمام الملك مربوطين إلى حاشية رباطي الفرنسيسكاني». و عندما يجادله وفد من الأشراف حول صحة صلاحية الأعمال التي خولته إياها نيابة الملك فإنه كان يريهم من شرفة منزله الجيوش التي أنشأها و هي مصطفة بأهبة المعركة مع لوازم هائلة

20- كان برينوس زعيما لاحدى القبائل الغالية على ساحل البحر الأدرياتيكي، تمكن من احتلال روما سنة 387ق.م. و اضطر الرومان الى شراء السلم بدفع ألف ليرة من الذهب له، و حسب الحكاية أنه أثناء الخلاف حول دقة الأوزان المستعملة لتقدير المبلغ المؤدى استل برينو سيفه و وضعه بجانب المقاييس و قال العبارة المشهورة (آه من المغلوبين) التي تدل على أن الغالبين لا يشفقون على المغلوبين.

للمدفعية، و يقول لهم بصوت حازم و أنوف: «أولئك هم سلطاتي أحكم بهم قشتالة و سأحكمها حتى يأتي مولاكم و مولاي لحيازة ملكه». و قد انقطعت منذ ذلك اليوم السلطة التي مارسها الأشراف في إسبانيا. إلا أن وصاية الكاردينال سيسنروس على العرش لم تدم سوى تسعة عشر شهرا بقيت أثناءها طبقة النبلاء الكدرة خاضعة و انتقص التأثير السياسي الذي كانت تمنحه قوانينها وامتيازاتها للمدن، و انتقلت السلطة العسكرية التي كان النظام الفيودالي يضعها في أيدي النبلاء إلى الشعب و تم إنشاء جيش دائم، و أوصيت المدن بإقامة هيئات تحمل اسمها دعيت المليشيا الفعالة كانت سلاحا ذا حدين كسائر الهيئات الشعبية فقد استخدمها سيسنروس ضد الأشراف و استعملها كارلوس للنيل من النبلاء والشعب معا ثم سرعان ما انقلبت ضده.

و نزل كارلوس في العام التالي 1517 بفيبيافيسيوسا في أستورياش متبوعا بحاشية زاهية من الأسياد الفلامانيين فقتل جورا و بازدراء الشيخ الوصي[21] الذي بذل جهودا كثيرة لكي يضمن له وراثة العرش. و لم يكن أرشيدوق النمسا المالك لعديد من الدول و المرصع جبينه بكثير من التيجان يرى في إسبانيا أكثر من إقليم و مقاطعة في مملكته الشاسعة فحكمها كجزء من إمبراطوريته الواسعة الأطراف و ليس كدولة مختلفة، و عمل على احتقار الخاصة عمدا حتى يخزيهم مع بقية العوام. و إذا تأملنا أغراضه الزاهية والثوب الأرجواني الإمبراطوري نرى أنه لم يكن يأتي إلى إسبانيا بقصد تدبير شؤونها وفق قوانينها وإنما لأجل استغلال الشعب الذي جعله يحمل التاج الملكي لصالح الخاصة من أشرافه، و لهذا فالتاريخ لم ينعته أبدا بالاسم الإسباني دون كارلوس الأول بل دعاه بحق دائما كارلوس الخامس !...

21- مات في برغش لما كان ذاهبا لاستقبال العاهل الجديد كارلوس الأول في 8 نوفمبر 1517 وانتشر حينذاك نبأ مقتله مسموما.

و أزمع كارلوس عند تسميته إمبراطورا على ألمانيا على المضي لتسلم التاج الإمبراطوري فاستدعى برلمان قشتالة في شانت ياغو بجليقية و كان أمرا غير معتاد آنذاك و طالبه بإعانة مالية جد وفيرة من قبل أن تؤدى الضريبة السابقة، لكن نواب طليطلة رفضوا منحها فتم نفيهم بعسف شديد و نقل البرلمان إلى كرونيا حيث سمحت الدسيسة و الإغراء والتهديدات بالانتزاع من النواب الضعاف أو المرتشين تخويل الإنعام بإعانة مائتي مليون مرابطي، و قد احتجت كل من مدريد و قرطبة وطورو و شلمنكة و طليطلة و مرسية على هذه الهبة المجانية. و استعجل كارلوس الرحيل لما حصل من البرلمان على المال الضروري للحضور ببهاء في ألمانيا، و عين الكاردينال أدريان دو أوتريخت وصيا على مملكتي قشتالة و ليون و دون أنطونيو فنسيكا قائدا عاما، و ولّى كلاًّ من دون خوان دي لانوثا و دون دييغو دي مندوثا كونت دي مليطو على حكومة كل من أراغون و بلنسية و قد لقي التعيينان الأخيران استحسانا عاما. و أما تعيين أدريان وصيا فكان بمثابة إهانة للكبرياء الوطني بحيث اعتبر تفضيل أجنبي على سائر النبلاء في إسبانيا بمثابة فضيحة، و لم تلق التماسات إبطال هذا التعيين أذنا صاغية فكارلوس بدون أن يصغي لشكاوي إسبانيا ركب البحر من كرونيا في يوم 22 مايو 1520 بغرض الذهاب لتقلد التاج الإمبراطوري ودون أن ينتبه إلى كونه قد ترك من ورائه ثورة مريعة.

و بينما كان الملك يعتصب التاج الإمبراطوري على رأسه و البحارة و الجنود الإسبان يقومون في جهات بعيدة بغزو و اكتشاف كنوز عوالم لفائدته كانت طمأنينته النفسية قد بدأت تتكدر حيث أخذت تتشكل جمعيات في قشتالة و نقابات في بلنسية و في نفس الوقت نشبت ثورة عنيفة كان عليها أن تنهي حريته السياسية على الدوام، فقد استمرت الصراعات الداخلية و النزاعات الأهلية ثلاثة أعوام من 1519 إلى 1522.

و رأى الشعب في قشتالة بسخط أنه بالرغم من الإعانات المالية التي منحها البرلمان لكارلوس فإنه لم يقبل الالتماسات التي رفعت إليه، فثارت الفتنة في المدن الرئيسية بالمملكة و كانت طليطلة هي الأولى التي حركت قوات جعلت على رأسها دون خوان دي باديا و في شقوبية وسرقسطة جر النواب أرضا بسبب قيامهم بالتضحية بحقوقهم في البرلمان مقابل المال، وعمت الفتنة جميع مدن قشتالة و الأندلس و جليقية. وقد جمع الزعماء الشعبيون جيشا قويا في وقت قصير و أقاموا فيما بينهم شكلا من الاتحاد و الجمعية أو الجماعة و منها اتخذوا تسمية الشعبيين، و شكلوا مجلسا في آفيلا حيث بعثت المدن بنوابها فاتخذوا لهم اسم الرابطة المقدسة و شرعوا في التداول حول شؤون الدولة و حملوا على تعيين أجنبي للوصاية على عرش قشتالة باعتباره مناقضا للقوانين الأساسية للمملكة فعزلوه من مهامه. و حاول باديا أن يجعل على رأس الجماعات الملكة دونيا خوانا التي كانت قد انزوت في طورديسياس منذ هلاك زوجها إلا أن تلك المسكينة الحمقاء لم تبد أية علامة للخروج من كآبتها المعتمة و كما لم تستطع بأفعالها أن تعير أي دعم للثورة. و كان كارلوس قد قدم بعض التنازلات من ألمانيا فعرض العفو العام و حث الأشراف على مساندة قضيته و قضية الأرستقراطية ضدا على مطالب الشعب و عين الأميرال مشير قشتالة وصيا على المملكة مع أدريان.

و شكل الشعبيون مطالبهم بمذكرة شهيرة من بين ما تضمنت أن تخضع أملاك النبلاء لنفس الضرائب والأعباء التي يتحملها الشعب، و كانت الطبقة النبيلة قد دخلت إلى العصبة لما كان الأمر يتعلق بتقييد سلطة الملك ثم تخلت عن الحزب الذي سيكون فوزه شؤما بالنسبة لها لأنه طالب بالحرية و المساواة أمام القانون و أخذت موقعا لها بجانب العرش. وقد سلمت قيادة الجيش الشعبي إلى دون بدرو خيرون أحد

كبراء قشتالة بعد طرد باديا و كان هذا الإيثار الغريب عبارة عن تعظيم دور الشعب أمام الكبراء، إلا أن النجاح البائس لأولى عملياته جعله يترك القيادة في وقت وجيز، فعاد باديا لتولي القيادة من جديد و قام بمهاجمة طورلوباطون واستولى عليها ثم سلمها للنهب. و كان الملكيون والشعبيون قد شرعوا في التفاوض فيما بينهم فاستاء قسم من قوات باديا من التعطل، و رغبة في الاستمتاع بغنيمة طورلوباطون في سلام فإنه غادر ميدان العصبة، فقام أتباع الوصي على العرش بالزحف على معسكر باديا الذي أوهنته الخيانة فحاول التراجع عبثا نحو طورو و تفادي المعركة إلا أنه تمت ملاحقته في ميادين فيالار، فلم تفده الشجاعة العجيبة التي أظهرها كما لم تنفعه مدفعيته التي وضعت في أرض متوحلة إما مكرا أو عن عدم خبرة فانهزم سريعا و سقط أسيرا هو و إثنان من الزعماء الرئيسيين و هما برافو و ملدونادو قائدا قوات شقوبية و شلمنكة فتم شنقهم باعتبارهم خائنين، و أعلن عن عفو عام استثنيت منه الرؤوس الذين وقع سجنهم وإعدامهم جميعا. و لئن كانت روح العصيان لم تفتأ تسري في أراغون فإن دون خوان دي لا نوثا حال دون أن تتحول إلى ثورة محققة.

و في الوقت الذي اضطرمت فيه نار حرب الجماعات في ميادين قشتالة تشكلت جمعية أخرى في مملكة بلنسية ذات ميولات و طبيعة نقيضة تماما وسط سيول من الدم تحت اسم نقابة، و هي جمعية تكونت من طرف العامة و وجهت بالخصوص ضد الأشراف و مدت يدها للشعبيين في واحدة من تلك التناقضات التي تفسر بشكل كاف الوسائل المبتذلة للسياسة.

و تعرضت بلنسية للأضرار المفجعة للوباء الفتاك فتركها رجال السلطة و معظم النبلاء و كبار الأعيان و فروا بجلدتهم من الطاعون، فانتشرت آنذاك شائعة بأنه يتم الاستعداد في الجزائر لإنزال المسلمين في شواطئ بلنسية، فتمت التسوية بصدور مراسيم فرناندو الكاثوليكي

وأسرع الحرفيون و أهل القرى إلى حمل السلاح لأجل التهييئ للدفاع. و كانت المحن التي نكبتْ بلنسية قد نسبت إلى الغضب الإلهي الذي سببه الفجور التي ارتكبت و بالخصوص اللواط الذي اعتبره الشعب أمرا فظيعا، و قام راهب فرنسيسكاني يعظ في كتدرائية و تناول بالنص هذا الإثم الشنيع و أبرز العقاب الذي سلطه الله على الأقوام التي تأوي في كنفها الملطخين بالجرم الذي كما جاء في العهد القديم قد أدى الى أن أمطرت السماء نارا على المدينتين اللعينتين سدوم و عمورة[22]، فألهب بكلامه حماس المتعصبين من المستمعين المفجوعين من مصائب الوباء، و عند ختام الخطبة الدينية هرولوا جميعا نحو دار خباز دلت الإشاعة على أنه مدنس بذلك الجرم، فأمسكوا به و جروه إلى ساحة الكتدرائية حيث أوقدوا نارا و أحرقوه فيها حيا بعد أن رفضوا تدخل رجال الدين الذين خرجوا بالقربان المقدس في موكب ديني لانتزاع الضحية من يد جلاديه بدون جدوى. و جاء في اليوم التالي إلى بلنسية الحاكم دون لويس كبانيياس الذي كان غائبا في مورفييدرو بهدف التحقيق في القضية، فوقع ما يحدث دائما أنه عندما تشترك عامة البلدة في حادث مشابه فإنه لا يتم الحصول على أية حجة ضد الخاصة.

و قد أخذ العامة مبتهجين بالانتصار ينضوون في فصائل و يتسلحون وفق نمط المليشيا الفعالة التي أنشأها الكاردينال سيسنروس و اتخذوا في اصطلاحهم تسمية النقابة المقدسة ناعتين هكذا جمعيتهم أو أخوتهم. وكانت الحجة التي اتخذوها لتأسيس هذه الجمعية و كذلك تسميتها

22- من مدائن قوم لوط و هي مجموعة القرى التي خسفها الله بسبب ما كان يقترفه أهلها من مفاسد حسب ما جاء في العهد القديم و في القرءان، و سدوم هي القرية التي أمطرت مطر السوء المذكور في سورة الفرقان لأنها رجمت. و جاء في تفسير الجلالين و أهل سدوم هم قوم لوط و قد أرسل الله لوطا عليه السلام الى قومه و كانوا يقطنون سدوم و عمورة، و يعتقد كثير من الباحثين أن القريتين كانت تقعان في منطقة البحر الميت و غور الأردن و أن التدمير وقع بنيران شديدة منذ أربع آلاف سنة.

كافية لاسترضاء الناس المتدينين و جلب عطفهم و خاصة القساوسة الذين تجند الكثير منهم فيها و أعلنوا تزودهم بالسلاح ضدا على المسلمين فهيأوا بذلك الوسيلة لإثارة الفتنة ضد النبلاء حماة المسلمين الذين كانوا يمقتونهم بشكل فظيع. و كانت الفئات الشعبية في بلنسية واقعة منذ بضع سنين تحت طغيان طبقة النبلاء و كانت تكدس بصمت المعاناة المنسوب الوفير للحقد، لأن كل شكوى غير مفيدة و كل مطالبة بالعدل مستحيلة إذ القوانين ليست لها أية قوة، و حينما حاول الأسقف سان دوفال إعطاء صورة عن النكايات التي يكابدها الشعب من النبلاء قال: «إذا صنع معلم خياط لباسا فإن الأسياد يكيلونه ضربا لأنه طلب سداد أجرته، و إذا ما ذهب للتظلم عند القضاء فإنه يكلفه أكثر من الأجرة». و كانت هذه الإهانات كافية لتبرير قيام النقابة فلو أنها حصرت دورها في أن تكون جمعية لأجل التعويض القانوني عن الإهانات لكان كثير من الأشخاص النزيهين و المسالمين قد تبنوا منذئذ رأي تلك الأخوية أو الرابطة لكن العيب الكبير للجمعيات الشعبية هو أنها تنتهي دائما بالانفصال عن هدفها، و هكذا فكلما تحركت القاطرة مرة فإن الأقوام الأشرار و أصحاب الأهواء السيئة يمسكون بقيادتها ويكشفون منذ البداية عن غرضهم الحقيقي، فالنقابيون يحلفون عند انضوائهم على التعاضد المشترك ضد النبلاء و التضحية بثرواتهم وأملاكهم من أجل هذه الغاية.

و كان شخص يدعى خوان لورنثو وهو حلاج مسن يحظى بتقدير منقطع النظير من العامة قد اقترح في ذكرى السيد المسيح و حوارييه الإثني عشر أن يتشكل مجلس من ثلاثة عشر حرفيا يتولى تدبير جميع الشؤون لأجل حماية المملكة من المسلمين و العامة من الأشراف، و إلزام كل عضو في النقابة بأن يحمل قضاياه و دعاويه إلى هيئة التحكيم المؤلفة

من الثلاثة عشر وكيلا بدون أن يلجأ إلى قوانين المملكة. و كان غيين سرويا حائك الصوف هو أحد الوكلاء المعينين الذي أضحى هو روح النقابة و كان رجلا عنيفا اختبرت شجاعته و لا ينقصه شيء من القدرة. و قد حدث كل ذلك في أواخر دجنبر 1519.

و بعث النبلاء لما أنذروا بالخطر بثمانية من مفوضيهم إلى الملك الذي كان موجودا في برشلونة حيث كان قد انتهى من أداء اليمين بتنصيبه كونتا لكاطالونيا و بعد أن كان أيضا قد أقسم على القوانين في سرقسطة كملك لأراغون، فتوسلوا إليه بالقدوم في أسرع وقت ممكن للحلف كذلك على قوانين بلنسية بصفته الشخصية حسبما يشترطه دستورهم و لأن حضوره الشخصي سيكون وحده الكفيل بإعادة النظام. فأمر كارلوس بجمع برلمان بلنسية تحت رئاسة الكاردينال أدريان و يخبر فيه بأنه سوف يؤدي يمينه فيه بواسطة ثلاثة مفوضين لأنه يستحيل عليه الذهاب إلى بلنسية شخصيا بسبب استعجاله الذهاب إلى برلمان قشتالة في شانت ياغو ثم رغبته في السفر لاحقا إلى ألمانيا. و كما منع في نفس الوقت المنضوين في النقابة من الحضور مسلحين و إقامة اجتماعاتهم بدون إذن الحاكم. و أرسلت النقابة من جهتها ممثليها أيضا إلى الملك لجعله يرى الضرورة التي كانت عندهم في التسلح لأجل تفادي اجتياح وشيك من المسلمين و بهدف الحماية من جور و تعسفات النبلاء، و قد استغل سرويا هذه المناسبة ببراعة ليفهم الملك بأنهم كانوا مزمعين على تأييد إرادته في أداء يمينه بواسطة المفوضين في البرلمان. و قد استحقت هذه المناورة البارعة نيل امتياز جاء في شكل رسالة ملكية مؤرخة في افراغة اعترف فيها الملك بالصفة القانونية للجمعية و أذن لها في تنفيذ أربع استعراضات عامة كل سنة، و كان تأثير هذا الامتياز عظيما و قام سرويا بإرسال نسخ منه إلى سائر المدن و بلدات المملكة بقصد إعلامها.

و وصل إلى بلنسية الكاردينال أدريان و نائب أمين سر الدولة دون أنطونيو أغسطين و رئيس المحكمة العليا لأراغون بقصد أداء اليمين على قوانينها باسم الملك، إلا أن النبلاء المجتمعين في البرلمان رفضوا باتفاق مع الهيئة الإكليروسية استقبال المندوبين و تمسكوا برفضهم مرتين بالرغم من أوامر الملك المتكررة، فأدخل إذذاك الكاردينال أدريان النقابة في المعركة. و قد هيأ النقابيون الحفل الاستعراضي ليوم الأحد 29 فبراير 1520 واستدعوا إليه مندوبي الملك و الكاردينال أدريان و نائب أمين سر الدولة، و قد شارك في الاستعراض نحو ثمانية آلاف نقابي قاموا بنشر رايتهم و تسلحوا جميعهم و صاحوا حين مرورهم أمام المندوبين الملكيين ! عاش الملك ! و كان الكاردينال يصفق لهم و يحيي بلطف راية الحياكين التي تذكره بأصله القديم و بحرفته، و استغرق في لطفه في اليوم التالي إلى أن استقبل بشوشا لجنة من العامة جاءت لتحيته. لكن برلمان قشتالة لم يتخوف و لم يبد أي ضعف أو رضى ذليل بتقديم شهادة مخجلة في لاكرونيا.

و خرج المفوضون الثلاثة من بلنسية دون أن يؤدوا اليمين في البرلمان باسم الملك، و ذهب الكاردينال أدريان إلى جليقية لتلقي التعيين من كارلوس وصيا على العرش الأمر الذي سيكون باعثا لكثير من التمردات.
و لما كان الملك على أهبة الإبحار من لاكرونيا نحو ألمانيا وصل مندوبو نبلاء بلنسية و مبعوثو النقابة يحملون معهم آخر التماساتهم للملك، فقد طلب النبلاء مرسوما لحل النقابة بينما تطلع النقابيون إلى الحصول مستقبلا على مناصب المحلفين أو نواب في مجالس بلدية بلنسية إما لأنفسهم أم للنقابات التي ينتسبون إليها. لكن الملك لم يقرر في المسألة واكتفى بأن عرض على النبلاء تعيين نائب للمك يتمتع بسلطات مطلقة و اختار للمنصب دون دييغو دي مندوثا كونت دي مليطو، و أعطى في

نفس الوقت لممثل النقابة خوان كارو رسالة توصية لنائب الملك المقبل في بلنسية ثم بعث إليه كارلوس نفسه بعد ثلاثة أيام كتابا يحمل تعليمات مضادة. و هو تصرف غير معقول يصدر عن عاهل كان قد أوصى في يوم 7 مايو للنقابيين و في يوم 10 من نفس الشهر اضطر إلى إبطال المطالب التي لم يتجرأ على رفضها صراحة و بصدق !!...

و دخل نائب الملك الجديد بلنسية يوم 9 مايو و أدى له البرلمان اليمين في نفس اليوم إلا أنه احتفظ بحقه في الاحتجاج. و قد ازدادت جرأة النقابيين إلى الحد الذي جعل نائب الملك عند دخوله الرسمي إلى بلنسية رفقة جميع النبلاء يتوجه نحو الكتدرائية عبر الطريق الأقصر، بيد أن غيين دي سرويا الذي كان محاطا بالثلاثة عشر و بعدد كبير من النقابيين أمسك بشكيمة البغلة التي كان يمتطيها نائب الملك و قال له: «إن الملوك و الأمراء لا يبحثون عن سبيل متعجل عند دخولهم الرسمي»، و دله هذا العامي الجسور على الطريق الذي ينبغي أن يسلكه ممثل أحد أقوى العواهل في العالم فسلكه. و طلب سرويا من نائب الملك تعيين إثنين من المحلفين من طبقة العامة بناء على رسالة الملك إلا أنه سعى لرفض طلبه، فهدد سرويا بإغراق رصيف دار البلدية بالدماء إذا لم يتم تعيينهما فوقع الانتخاب يوم 26 مايو و نجم عنه تعيين الشخصين اللذين اختارهما الثلاثة عشر بينما لم يحصل من رشح باسم الملك على أي صوت، فرفض نائب الملك المصادقة على الانتخاب لكن المحلفين الجدد شرعوا في ممارسة مهامهم. و قد أقام مجلس الثلاثة عشر احتفالا بنصره في نفس اليوم فنظم استعراضا كبيرا لقواته التي مرت من أمام قصر نائب الملك حيث أطلقت بعض القربينات النار على أبوابه بشكل عات.

إن النجاح الذي ما انفكت تحصده مطالب النقابيين و نشر الرسالة الملكية ليوم 7 مايو و التي تبلغ نائب الملك و توصيه بالنقابة جعل جميع

قرى بلنسية تقريبا بجانبهم، فقد ثارت شاطبة و تبعها مربيطر حيث شكل مجلس قام بمهاجمة القلعة التي التجأ إليها النبلاء الذين تم ذبحهم بوحشية دون مراعاة لصراخ نسائهم العاجزات و لا أطفالهم الأبرياء، وأعلن بذلك صراحة عن الصراع بين العامة و الأشراف، و لكي يعتني الأشراف بالدفاع عن أنفسهم فإنهم عينوا عشرين ممثلا عنهم و منحوهم السلطة المطلقة ليتولوا حفظ الأمن و سلامة الجميع. و هكذا فالقوى الشعبية لمجلس الثلاثة عشر و قوى النبلاء أخذوا مكانهم وجها لوجه.

و بحث النقابيون عن علة أدت إلى إراقة سواقي الدم في مدينة السيد الجميلة فعثروا عليها سريعا، فقد ذهب مجرم إلى التكفير عن جرائمه في سقالة الإعدام بحكم صدر عن المحكمة و بأمر من نائب الملك إلا أن سرويا و أتباعه انتزعوه من يد العدالة بحجة أنه لم يحاكم بحسب القوانين وحملوه إلى الكتدرائية بعذر أنه صار مقبولا في صف الإكليروس، ثم هاجم قصر نائب الملك على رأس ثلاثة ألف نقابي بقصد الاستيلاء عليه إلا أن محاولته باءت بالفشل نتيجة المقاومة البطولية التي أظهرها الحرس، و عندئذ اختفى سرويا و جعل أصحابه يشيعون الخبر بأن نائب الملك عمل على اغتياله خفية فاهتاج الناس و ماجوا و قام أنصاره بمحاصرة القصر وهددوا بصيحات حانقة بقتل نائب الملك و النبلاء الذين يوجدون معه اذا لم يظهر سرويا. و كان أسقف سغوربي قد اكتشف محل اختبائه فبحث عنه و لقيه و ارتمى على قدميه باكيا و متوسلا إليه بأن يبرز للملأ تجنبا للمصائب التي قد تحل بالمدينة، فأذعن النقابي الشرس أمام بكاء الشيخ الأسقف و توسله و ركب ردف بغلته و حضر إلى مكان المعركة فلما رآه القوم كأنهم سحروا فوضعوا السلاح و صاحوا ! يحيا الملك ! يحيا سرويا ! .

لقد أفزعت الأيام الثلاثة التي دام فيها الشغب نائب الملك كونت دي مليطو لدرجة أنه استغل وقت الانبساط الشعبي بسبب ظهور سرويا

وفر خفية من بلنسية (6 يونيو) فذهب إلى كنسنطاينا و من ثمة إلى شاطبة و انزوى في قلعتها في 23 يوليو إلا أنه طرد أيضا من طرف العامة فطلب اللجوء من دوق غانديا الذي حافظ على النظام في مقاطعته. و بالانسحاب الجبان لنائب الملك بقيت بلنسية متروكة للثلاثة عشر و اضطر الأشراف و عائلاتهم إلى الفرار بحثا عن ملجأ في الأماكن القليلة التي لم ترفع راية النقابة.

و كانت مورية كما في قشتالة سيمنكاس البلدة الوحيدة التي وقفت في وجه الجماعات فقاومت الإغواءات و الإقناعات و حتى أسلحة النقابيين و أقسمت أن تظل مخلصة للملك و وفت به، و لأجل ذلك كتب الملك إلى مورية من أكيسغرام يشكرها (في 22 أكتوبر 1520).

و كانت تلك هي الفوضى التي عمت بلنسية و الجرائم التي ارتكبت بها حتى أن الثلاثة عشر أنفسهم بدأوا يلاحظون أنهم لو يكونوا سوى أدوات في يد بعض الأشرار و ليسوا كافين لردع الشعب فحاولوا الدخول في مفاوضات مع نائب الملك. و كان الكونت دي مليطو مذعورا من الحالة التي أوجدها ضعفه و عدم خبرته كما لم يكن يعي حقيقة سلطته بحيث كان يخاف من الالتزام في كل شيء، و هكذا أبى تحريضات النبلاء للمقاومة مثلما رفض التمهيدات التي وضعها الثلاثة عشر لأجل الاتفاق. و استدعى في الأخير الطبقة النبيلة إلى فالديغوا (17 غشت) فحضرت و شكل جيشا لكنه عوض أن يشترك معها في الحملة فإنه أرسل وفدا إلى الملك في ألمانيا يطلب منه الأوامر، و هكذا انقضت خلال عملية الذهاب بعيدا بحثا عن تدبير مستعجل بقية السنة زيادة على الأربعة أشهر الأولى من السنة الموالية 1521 قام أثناءها النقابيون بتغيير الإدارة العمومية ووزعوا المناصب و الوظائف و أقاموا حكم الرعب. و بعد مضي وقت كثير جاء كاتب الملك من ألمانيا لإعلان الأوامر الصارمة للملك

الإمبراطور إلا أنه أجبر على الهروب على وجه السرعة من بلنسية في 29 أبريل حيث كان قد استقبل رجما بالحجر.

و اتضحت الحالة فأعلن النقابيون صراحة أنهم أعداء للملك بينما ذهب الأشراف للمحاربة من أجل العرش و في نفس الوقت لضمان أمنهم. و لما كان مسلمو بلنسية أتباعا لأسيادهم فإنهم تركوا الفأس والمحراث اللذين يحرثون بهما الأراضي و أمسكوا الرمح و البندقية لأجل الدفاع عن أسيادهم و قاموا بتشكيل هيئات عديدة و عملوا على مواجهة التدمير الذي خلفته من ورائها القوات المترجلة المؤلفة من حرفيي و حلاجة بلنسية و سلابها. و بلغ الحنق مداه ضد المسلمين و انفجر في بلنسية بصخب عنيف على إثر العثور على جثتين لنقابيين غرقا في سواقي مربيطر و نسب موتهما إلى المسلمين. فتسلح العامة و قام الرهبان بالطواف في الشوارع حاملين الصليب و مبشرين بالحرب المقدسة ضد الكفار، وأخرجت الراية التي يتم رفعها في الصراع ضد المسلمين و وضعت فوق باب سرانوس (الجبليين) و نهب حي المسلمين. و قرر الثلاثة عشر القيام بالهجوم بستة آلاف من القتلة المستأجرين فزحف النجار ميغل إسطييس على مورية ليجعلها تلتحق بالنقابة و اتجه صانع المخملات فيسنطي بريس لمهاجمة جيش النبلاء الذي جمعه نائب الملك في فالديغوا و أعلن الإثنان عزمهما على إبادة المسلمين أو جعلهم يقبلون التنصير لتبرير صفة النقابة المقدسة. و كان إعلان إسطييس رسميا إخضاعه لمورية باطلا بحيث أنه انهزم أثناء انسحابه من طرف دون ألونسو دي أراغون دوق سغوربي و سقط أسيرا و قطعت أطرافه أشلاء، و أما بريس فزحف على جيش نائب الملك و عند مقابلته تراجع هذا الأخير نظرا لقلة خبرته العسكرية و تردده كسياسي يوم 22 يوليو إلى معقل غانديا، ثم خرج يوم 25 وعرض المعركة بيد أنه في خضمها تخلت عنه المدفعية القشتالية التي

مرت إلى صف العدو فهرب مسرعا نحو دانية، أما النبلاء فربما انسحبوا نحو حصونهم أو توغلوا داخل قشتالة. و احتل النقابيون غانديا و دفع المسلمون ثمن شجاعتهم و ولائهم الذي أظهروه في المعركة جد غال بحيث نهبت مساكنهم و أحرقت و اغتصبت نساؤهم و بناتهم و أرغموا على الجثو وسط أنقاض دورهم و فوق جثث أفراد عائلاتهم لكي يتلقوا التعميد مقابل الحفاظ على حياتهم. و شرع النقابيون الثملون بنشوة الدم يقومون بوظيفة القسيسين فيتلفظون بكلمات مختصة بأسرار الكنيسة و يرشون المعمدين بالمكنسات و الأغصان المبللة بمياه السواقي، ثم تفرقوا في كل أنحاء البلاد يسلبون السكان الموريسكيين و ينصرون أولئك الذين لم يكن لهم من جرم سوى كونهم أتباعا لأعدائهم حتى أظهروا فظاعات لا مثيل لها في بعض الجهات.

و كان نحو ستمائة من المسلمين يدافعون عن أنفسهم في حصن بولوب مظهرين مقاومة بطولية أمام قوات بريس الشرس و لم يستسلموا إلا تحت ضغط الجوع فقط و تقديم الضمانات بحماية أنفسهم و الحفاظ على متاعهم، و لوثوقهم في الإتفاق فإنهم نزلوا مجردين من سلاحهم إلى السهل حيث تلقوا سر المعمودية بالرش و ما إن انتهت الطقوس وتهيأوا للذهاب لحال سبيلهم حتى انقض عليهم النقابيون مرددين حسبما حكاه إسكولانو في تأليفه عقود بلنسية : «إنهم لن يكونوا متأهبين أحسن للموت أبدا، و إن ذلك يعني البدء في إلحاق الأرواح بالسماء و إلقاء النقود في الأكياس»، و هكذا تم في لحظة قتل ستمائة من المسلمين. و عاد بريس إلى بلنسية من بولوب تاركا وراءه قلعة أوريولة التي كانت على وشك الاستسلام للعامة فكان خطأ ارتكبه بسبب تخوفه من عصيان قواته غير المطيعة.

و بينما كان يحدث ذلك في الجانب الأخر من شقر فإن دوق سغوربي الذي كانت قواته تتألف بالأساس من المشاة الموريسكيين في نحو أربعة

آلاف رجل و من ألف و خمسمائة راجل من المسيحيين على الأكثر مع فرقة من الفرسان قد خرج بهم من ميدانه في المنارة و سار لنزال النقابيين المنتمين لمربيطر تحت إمرة صاحب الخان خوان سيسون، فبرز إليهم في المعركة التي خسرها في بداية الأمر بسبب فرار الفرسان الأسياد ثم ربحها بفضل ثبات المشاة المسلمين الذين تركوا الساحة مزروعة بالجثث و صدوا قوات سيسون الذي بالرغم من كونه قاد أتباعه كقائد كفء و شجاع فإنه اختبر حظ الرؤساء الشعبيين الذين لا يظفرون، فكان أن اتهم بالخيانة من قبل أتباعه و اغتيل لدى عودته إلى مربيطر. و قد كلف انتصار المنارة دوق سغوربي غاليا لأن معظم المشاة المسلمين هلكوا في المعركة و اضطر هو إلى الانسحاب إلى نولس محكوما بالجمود.

و إن المظهر المعاكس لقضية الشعب الذي دأبت على اتخاذه أحداث جماعات قشتالة أثر بشكل قوي في مصير نقابة بلنسية، و كان دوق غانديا قد التقى مع المشير و قائد أسطول قشتالة الذي عينه الملك هو والكاردينال أدريان وصيين على عرش تلك المملكة من جديد، و قد فهم الحاكمان الجديدان أنه حتى إن كان الشعبيون مرعبين كثيرا فإن قوتهم ستصير مستحيلة مقاومتها في اليوم الذي سيقدرون الاتكال فيه على التعاون الفعال مع نقابيي بلنسية. و كان المركيس دي لوس بليش نائب الملك في مرسية قد غزا مملكة بلنسية عبر حدوده الجنوبية و استولى بالتتابع على كل من أشبي و قربليان و لقنت و هزم النقابيين الذين تجرأوا على قتاله يوم 20 غشت و أنجد حصن أوريولة و قام بشنق زعيمهم الكاتب العمومي بدرو بلومريس و الثلاثة عشر الذين كانوا يشكلون مجلس مدينة أوريولة.

و أغاظت التقدمات السريعة للمركيس دي لوس بليش مثيري الاضطرابات و المتمردين في بلنسية و مع ذلك فإن حزب الرجال الطيبين المقهور حتى آنئذ رفع رأسه. و كان لبعض العامة ممن لم يشاركوا في

الاضطرابات و تخوفوا من أن يروا أنفسهم متورطين في الخراب العام لحزبهم القدرة الكافية ليطلبوا من الأمير دون إنريكي دي أراغون والد دوق سغوربي الذي خرج من نولس لمحاصرة مربيطر القدوم إلى بلنسية كوسيلة وحيدة للخلاص، فقبل الأمير عرضهم و قدم إلى بلنسية ونزل بقصر المطران. و وقع لدى وصوله انشقاق بين أتباع كل من سرويا و بريس و العناصر المسالمة و النزيهة في النقابة، فنشأت الاضطرابات و البلبلة وقام بريس الذي تجرأ على تسمية نفسه بالقائد العام بالوقوف أمام الأمير وجها لوجه. و كان بريس المذكور قد أثار جلبة في يوم 9 أكتوبر الذي يحتفل فيه ببلنسية بالذكرى السنوية لفتحها المجيد من طرف دون خايمي الأول ملك أراغون، و بما أن الأشياء العرضية تستخدم حجة للثورات الكبرى فإنه لما شاهد بعض الصبيان يلعبون في شارع الصفارين المجاور لربع المسلمين بلوحة قديمة مرسوم فيها سان ميغل و هو يدوس بأخمص قدميه التنين الجهنمي و يجوبون بها الطريق بمظهر مهدد و هيئة حربية انتزع منهم تلك اللوحة و هرول و من ورائه العامة يسعون لتعليقها في جامع بلنسية، فأعلن القساوسة و الإكليروسيين المنتسبين للنقابة أن ذلك الفعل يظهر بوضوح القدرة الإلهية، و باركوا على التو الجامع وخصصوه للعبادة و هو حاليا يعرف بكنيسة سان ميغل. و اقتحم العامة بعد ذلك مساكن المسلمين ودورهم و صنعوا مثلما صنعوه في غانديا و بولوب و جهات أخرى عديدة إذ مزجوا ماء المعمودية المقدس بالدم، و قامت نفس الأيدي بسفك الدماء مرة أخرى، ثم انسحبوا راضين بكونهم حولوا بهذه الطريقة إلى المسيحية أولئك الذين لم يملكوا الشجاعة الكافية لمواجهة الاستشهاد من أجل دين رسولهم المضل. و استسلمت مربيطر في 16 أكتوبر و دخلها نائب الملك الكونت دي مليطو مع دوق سغوربي و هدد من هناك العاصمة، بينما تقدم نحوها من الجانب الأخر كل من المركيس دي لوس بليش و دي مويا

و أسياد ألبطير و موخنطي بسبعة آلاف جندي من المشاة و ثمانمائة فارس، فغادر كل من سرويا و بريس المدينة و انسحبا لمواصلة الحرب أيضا في وادي شقر و المكوث بالجزيرة. و استسلمت بلنسية في 18 أكتوبر و بعد ثلاثة عشر يوما دخل نائب الملك كونت دي مليطو القصر الذي كان قد غادره بشكل مخز سابقا و ظل الجيش محتشدا في قرى الناحية، وتصرفت القوات المساعدة القشتالية تصرف الأعداء فعاملت المسلمين كما عاملهم النقابيون.

و رفعت كل من الجزيرة و شاطبة الثائرتين راية النقابة فزحف نائب الملك على الأولى و حاصرها لمدة إثنين و عشرين يوما بلا طائل فذهب للبحث عن حظ أوفر في شاطبة إلا أن نصيبه لم يكن موفقا، فبالرغم من أنه أحدق بها بثمانية ألف رجل و بطاقم من آلات الهدم لم يتقدم خطوة واحدة. لقد كان أخرقا و ينخدع بالداهية سرويا الذي عرض عليه تسليم المدينة لأخيه مركيس أسناد إذا ما انسحب الجيش، فانسحب إلى منطيسا لهذه الفكرة الشفهية البسيطة، و لما حضر أخو نائب الملك لحيازة المعقل تم أسره رغم أنه دافع عن نفسه بعزيمة ضد غدر النقابيين، فأعلنت بلنسية بصوت واحد وقوفها ضد ذلك الغدر و لم تستثن العامة أيضا فقام سرويا بإطلاق سراح مركيس أسناد.

و خرج بريس المرعب من شاطبة مع بعض القوم و اتجه نحو بلنسية لاستثارة أنصاره و تمكن من ولوجها في ليلة 18 من فبراير 1522 بالرغم من طواف فرقة من مائة فارس بضواحي المدينة بقصد اعتقاله أو منعه من الدخول، فاستقر في داره بشارع الغفران و استدعى أنصاره و ارتأى خطط العودة لإقرار سيطرته على بلنسية و أقسم هؤلاء على الدفاع عنه حتى الموت. فوضعت الحكومة خمسة ألف رجل على أهبة السلاح وقسمتهم إلى ثلاث هيئات هاجمت في آن واحد و من نقط متباينة الحي الذي يقطن

فيه بريس و توغلت قوات الملك داخل شارع الغفران فانهالت عليها أمطار مهولة من الحجر و الأثاث و المياه المغلية التي قذفت بها النسوة من نوافذ مساكنهن، و تمكن الجنود بعد ثلاث ساعات من القتال امتلأ أثناءها الشارع بالأموات و الجرحى و المحتضرين من الوصول إلى الدار و إحراقها، و قتل بريس لدى محاولته الخروج منها بين لهيب النيران المتقدة من طرف إحدى فرق العامة و تم سحب جثته و تعليقها في المشنقة بساحة السوق و قطع رأسه و وضع في نافذة في البداية ثم سمر بباب سان فيسنطي، و كما تم شنق تسعة عشر من رفاق بريس الشرس سريا داخل سجنهم و وضعت أطرافهم في الطرق الملكية فيما بعد، و دمرت دار بريس من أساسها و حولت أرضها إلى ميدان صغير اليوم دعي ساحة غاليندو.
و يمكن القول إن نقابة بلنسية انتهت في ذلك اليوم و لكن الاشتباكات و العراك استمر لبعض الوقت بين الجنود الملكيين و النقابيين، و قد برز المسلمون في كل هذه الغارات و خاصة الذين ينتمون لبارونية كورطس.
و كان ظهور النقابيين مرتين في ميدان منبسط هزموا في أثنائهما: يوم 15 أبريل في كرليط و يوم 2 سبتمبر في بيوس. و أرسل الإمبراطور لدى عودته إلى إسبانيا تعزيزات إلى نائبه مع أوامره الصارمة فأعيد بدء الحصار لشاطبة حينما كانت النسوة وحدهن بالبلدة يوم 6 سبتمبر 1522 و اللائي دافعن بشجاعة لا مثيل لها أتاحت الوقت و الفرصة لعودة النقابيين الذين كانوا يطوفون بالناحية. و سقط غيين سرويا الشهير في أيدي نائب الملك بعدما سلمه مسلم من أتباع أحد النبلاء و الذي بدون شك أراد أن ينتقم بذلك من الاضطهادات الرهيبة التي عاناها إخوانه، فتم شنقه في شاطبة يوم 18 نوفمبر و بعد ذلك بيومين استسلمت قلعة تلك المدينة، و اقتفت الجزيرة أثر شاطبة حين وجدت نفسها محرومة من المساندة. و قد هلك بحبل المشنقة القسم الأكبر من زعماء النقابة و كلف

هذا التمرد المتهور أكثر من أربعة عشر ألف ضحية في صفوف الحرفيين و العامة ببلنسية، و بذلك انهزمت الطبقة الشعبية في كل من قشتالة وبلنسية وظل العرش قويا في المملكتين معا و غدا النبلاء جد أقوياء. وأما المسلمون الذين خدموا بإخلاص كبير حزب الملك فسيشهدون بعد انقضاء تلك الحروب الدامية و العنيدة تجدد الجروح بشكل أشد قسوة بعدما كانوا يأملون أساسا أن تندبها القوة المنتصرة للعاهل.

8

حظر الإسلام في بلنسية – الثورة – انتهاء حرب الأفكار و بدء حرب العادات و التقاليد.

ارتفع عدد المسلمين الذين تم تعميدهم من طرف النقابيين في بلنسية إلى أكثر من ستة عشر ألف، و الذين تم وضعهم ما بين فأس الجلاد والماء المقدس و المحرم للمعمودية. و الموريسكيون الذين تم تنصيرهم بهذه الطريقة لم يكونوا مسيحيين حقيقة فقد ظلوا متمسكين بالشعائر الإسلامية و بقوا يمارسونها بتسامح من الأسياد و النبلاء حماتهم الحازمين، و كانوا بالمقابل يؤدون لهم ضرائب مضاعفة حتى لا يتخلوا عن معتقداتهم. و لما كانت آراء الإمبراطور كارلوس الخامس موافقة للدعاية الدينية فإنه أراد أن يخضع لرأي البابا و لعلماء اللاهوت الإسبان مسألة صحة صلاحية المعمودية الممنوحة للمسلمين من قبل النقابيين ببلنسية. و كان البابا كلمنطي السابع يتبوأ آنذاك كرسي القديس بطرس الذي اعتلاه في 19 من نوفمبر عام 1523 و كان تأثير الإمبراطور كبيرا على الكرسي الرسولي ففي 12 مايو 1524 و بطلب من السفير الإسباني في روما الدوق دي سيسا أمضى البابا براءة تعفي الملك من أيمانه و تدعوه إلى الاهتمام بتنصير مسلمي مملكة أراغون وبدون أن تكون قوانين مونثون[23] عائقا فإنه خوله قدرة إخضاع المسلمين للعبودية إذا هم

23- تقع بلدة مونثون في اقليم وشقة بأراغون، توشحت بأهم وسام لرهبانية الشجاعة و كانت في مناسبات كثيرة مقرا البرلمان مملكة أراغون خلال القرنين الثالث عشر و السابع عشر.

رفضوا اعتناق المسيحية. و تقول البراءة: بتمام الأجل يفهم أنهم يصيرون رعاياك. و هكذا قامت عائلات مسلمة كاملة قاست المحن و تعرضت لإذاية النقابيين و ارتابت من مستقبل أشد كآبة بالهجرة إلى إفريقيا بحيث خرج في عام 1523 وحده نحو من خمس ألف عائلة. و أرجأ الملك مسألة الإجراء في حق المسلمين الذين لم يرتدوا إلى المسيحية ليتفرغ لحل قضية اعتبار الذين عمدوا من قبل النقابيين هل هم مسيحيون أم مسلمون؟ فاجتمع في دير سان فرنسيسكو بمدريد في فبراير 1525 بمجلس مكون من المفتش العام ومن أعضاء بمجالس قشتالة و أراغون و بعض علماء اللاهوت و تم عقد إثنين و عشرين جلسة حظر الأخيرة منها الإمبراطور كارلوس الخامس الذي كان تأثير رأيه الشخصي واضحا في القرار بحيث رد الجميع بالإيجاب، ولم يشذ عنه سوى رأي القسيس الحكيم خرنيمو خايمي بنط الذي شغل بفخر كبير للعلوم و لمنفعة الكنيسة كرسي تدريس القانون الكنسي بجامعة لاردة لمدة ثمانية و ثلاثين عاما و حافظ عليه بمنطق لا ينثني وبالتعاليم الكنسية الصرفة فأفتى ببطلان تلك التنصيرات المكرهة قائلا إن اعتبار المسلمين المعمدين هكذا كمسيحيين يعد الوسيلة لاعتبارهم فيما بعد كمرتدين. و كان الراهب خايمي بليدا الذي ألف كتابا بعنوان (حماية الإتفاق في مسألة حديثي التنصر و الموريسكيين بمملكة بلنسية و في سائر إسبانيا) بحث فيه بعناية كل الحجج التي يمكن أن توحي بالتعصب الأكثر تهورا و أقر صحة صلاحية السر الكنسي لأنه لأجل التخلص من آثاره كان من اللازم التلفظ جهرا و صراحة و ليس ذهنيا بهذه الكلمات (لا أريد) التي لم ينطق بها المسلمون، و الحقيقة أن نصل الجلادين لم يكن ليتركهم ينطقون بهذه الكلمة ! ! . . .

لقد انتصر نظام عدم التسامح الذي دشنته سياسة الكاردينال خيمنث دي سيسنروس، فأصدر الإمبراطور وثيقة ملكية في 4 أبريل 1525 أعلن

فيها أن المعمودية المفروضة على المسلمين في عهد النقابات صحيحة، و بعث إلى بلنسية أسقف وادي آش مندوب المفتش العام مع إثنين من الإكليروس لأجل أن يثبتوا المسيحيين من مسلمي بلنسية و يقيموا الصلح دون أن يلزموا التوبة على المارقين النادمين و ليعمدوا أبناءهم، و تخصيص المساجد التي كان قد أقيم فيها القربان المقدس للعبادة الكاثوليكية. و قد وصل أسقف وادي آش دون كسبار دي أبلوس إلى بلنسية في 10 مايو برفقة الإكليروسيين الإثنين و هما الواعظان الشهيران الراهب الفرنسيسكاني أنطونيو دي غيفارا و الراهب الدومينيكي خوان دي سلمانكا، و في يوم 14 منه أعلنوا من أعلى المنبر و بلغوا على رؤوس الإشهاد و ذكروا من خلال اللافتات جميع المسلمين كي يحضروا للتصالح و التمتع بالعفو الملكي في أجل لا يتعدى ثلاثين يوما، و أنه سيفرض على الثوار و المتمادين في غيهم عقوبة الموت و مصادرة الثروات.
و قد طاف الواعظان بسائر قرى بلنسية، فلما رأى المسيحيون الجدد بأنه يجري تصالحهم مع الكنيسة بدون فرض التوبة أتوا أفواجا إلى المندوبين اللذين يمنحان التبرئة للمرتدين و يقومان بتعميد أبنائهم و الإغفال عن تعليمهم قواعد الكاثوليكية و قد تمت خلال أربعة أشهر و نصف زيارة سائر البلدات و القرى في مملكة ممتدة كبلنسية من قبل هذين الواعظين المتحمسين ثم عادا إلى العاصمة في يوم 28 سبتمبر.

و حان الوقت الذي رغب فيه الإمبراطور كارلوس الخامس استعمال البراءة التي منحه إياها البابا كلمنطي السابع فأصدر وثيقة ملكية في 13 سبتمبر ترغم جميع المسلمين في بلنسية على اعتناق المسيحية و دعاهم فيها إلى عدم الصراع ضد إرادة الله الذي يعزو القرار إلى وحيه الإلهي، ووعدهم بمعاملتهم كمسيحيين إذا امتثلوا و معاقبتهم بشدة في حالة العكس، و لكن بدون تحديد المكافآت و العقوبات. و أخبر المندوبون الثلاثة

لمحاكم التفتيش و للملك سائر القرى في يوم 8 أكتوبر بأنهم يمنحونهم أجل عشرة أيام فقط لأجل التشاور فإذا انقضت المدة فإنهم سيتوقفون عن لغة الإقناع، و حظروا في خلال ذلك على كل مسلم الابتعاد عن مسكنه تحت طائلة العبودية. و مرت الأيام العشرة و لم يستجب المسلمون و إنما استعدوا للفرار و ليس لتقبل المعمودية فباعوا أملاكهم و أثاثهم بأي ثمن، إلا أن مرسوما صدر يوم 21 أكتوبر منع عليهم البيع.

و صدرت في يوم 16 نوفمبر براءة الملك التي تلغي نهائيا الديانة الإسلامية، أمر الملك فيها الأسياد بجعل نزع سلاح المسلمين تحت مسؤوليتهم و طائلة مصادرة ثرواتهم و أن لا يترك لهم أكثر من سكين بدون سن و القيام بجرد أسلحتهم و تسليمها إلى المندوبين مع تعرض كل مسلم يستعملها لعقوبة مائة جلدة و للعبودية، و حدد أجل ثلاثة أيام لإغلاق جميع المساجد و عدم السماح للمسلمين بممارسة أية شعيرة لدينهم القديم لا في العلن و لا في السر، و أن يحملوا في قبعاتهم علامة الهلال الأزرق و أن يلزموا بحضور جميع الاحتفالات الدينية و الاستماع للخطب الدينية في دوائر قساوستهم، و عليهم بعدم الاشتغال في أيام الآحاد، و كل مخالفة لأحد هذه البنود لها عقوبتها الخاصة بالإضافة إلى العبودية ما عدا العمل يوم الأحد الذي يعاقب وحده بالغرامة.

و أصدر مفتشو بلنسية في اليوم التالي قرارا فرضه المحقق العام في يوم 3 نوفمبر بطليطلة يوجب بمقتضاه على كل شخص أن يشي بالذين يتغيبون عن أي كان من هذه الأوامر إلى محكمته ، و سمي قرار الوشاية و يحكم بموجبه بعقوبة الحرم الكنسي المحفوظ. و في النهاية أعلن بشكل رسمي يوم 25 من نفس الشهر عن قرار يأمر جميع المسلمين رجالا ونساء و أطفالا غير المعمدين بمغادرة مملكة بلنسية بنهاية دجنبر و سائر إسبانيا في أواخر يناير من العام التالي 1526، و إلا وقعوا تحت

طائلة العبودية و ألزموا بركوب السفن بالضبط من مرفأ لاكرونيا، و تم دلهم على الطريق الذي ينبغي أن يسلكوه عبر ركينا و أوطييل و مدريد و فيافرانكا ثم لاكرونيا. و قال إسكولانو في مؤلفه (عقود من تاريخ بلنسية) إن الغرض من هذا الإجراء بصرامته غير المعقولة و بتفاصيل تنفيذه كان هو أن لا يظلوا في ثغور إفريقيا و أن يستهلكوا في الطريق الطويل المال الذي يحملونه إذا لم يكن من اتصال مع أية حركة حتى يعطوا الفرصة لكي يذبحوهم في قشتالة. و أعلن المندوبون بعد يومين الحرم الكنسي المحفوظ و غرامة شديدة في حق كل شخص استدعي من طرفهم و لم يسعفهم و هددوا أيضا كل سيد احتفظ بمسلم في أراضيه و أملاكه بعد مضي 31 دجنبر بغرامة خمسة آلاف دوكا. و قد غمرت هذه الإجراءات المسلمين بالذهول و أسكتت حماتهم ، فأتت جماعة من المسلمين إلى الملكة دونيا خرمانا نائبة و حاكمة مملكة بلنسية و خلف الكونت دي مليطو لكي تأذن لهم بإرسال سفارة إلى الإمبراطور، و كانت جرمين دو فوا الأرملة الشهيرة لفرناندو الكاثوليكي و التي حازت عواطفه النبيلة قد أمضت لهم أمانا في 19 سبتمبر سمح بمثول إثني عشر نائبا عنهم أمام كارلوس الخامس، و كان أول طلبهم هو منحهم خمسة أعوام من الوقت حتى يصيروا مسيحيين وكما عرضوا عليه مساعدة مالية بخمسين ألف دوكا فأجابهم الإمبراطور بفظاظة بأنه يمنحهم طواعية لكي يعجلوا بذهابهم، و اقتصروا منذئذ على طلب إمكانة الإبحار من لقنت فرفض طلبهم أيضا بذريعة أنهم سيمرون بسهولة من هناك نحو إفريقيا. و لما أدركوا ضرورة اعتناق المسيحية فإنهم التمسوا في هذه الحالة أن لا تتم محاكمتهم من قبل محاكم التفتيش خلال أربعين سنة، إلا أن كارلوس الخامس رفض كذلك هذا الشرط و أحالهم على المفتش العام و أمد بفضله أجل خروجهم حتى 15 يناير. و اتجهوا عند انصرافهم من قصر طليطلة إلى المفتش العام مطران إشبيلية

دون ألونسو منريكي الذي استقبلهم ببشاشة كبرى و تولى الدفاع عن مطالبهم لدى الملك فحصل منه على أكثر مما كان نواب المسلمين قد تجرأوا على المطالبة به، و وعدهم في يوم 16 يناير جوابا على مذكرة سلموه إياها بأن محكمة التفتيش ستعاملهم مثل المسيحيين الجدد بغرناطة الذين لا يتابعون سوى بالكفر الصريح و المثبت كما يجب، و وعد بأن يقر مفوض البابا قران زان بمحرم الذي عقد حسب الشرع الإسلامي، و أن تجعل لهم مقابر منفصلة و أن يخول حسب سلوكهم أو يرفض الإذن لهم بالخروج من قراهم أيام الآحاد و أن يسمح لهم باستعمال اللغة العربية و الثياب الموريسكية خلال عشر سنين. و لتبرير التدبير الدنيوي فإن الإمبراطور أبطل أمر نزع السلاح و جعلهم على قدم المساواة مع المسيحيين القدماء في الأعباء و الضرائب، و ترك للجامعات الموريسكية في بلنسية و شاطبة والجزيرة و فياريال و قسطيليو دي لا بلانا أمر تدبير ماليتها بشكل منفصل و دون الإسهام في النفقات البلدية.

و حمل النواب هذا الجواب إلى بلنسية إما مدفوعين بالتغيير الإيجابي غير المتوقع لمصيرهم أو مقتنعين باستحالة الصمود، و قد حضر معظم المسلمين عند المفوضين الذين عمدوهم بشكل رسمي مستعملين الرش بنبات الزوفاء نظرا لكثرتهم و لعدم إمكانة عمله بطريقة أخرى، وكما قال الراهب أنطونيو دي غيفارا في (رسالات ذهبية و ودية) إنه وحده قام بتعميد نحو سبع و عشرين ألف دار للمسلمين، إلا أن مسلمي بني الوزير[24] لم يرضخوا بسهولة لرغبات الإمبراطور و أقفلوا الباب في وجه المفوضين الإكليروسيين و تحصنوا في بلدتهم فأسرع سكان القرى المجاورة

24- اسم بلدة مسند الى صفة النسبة و هي الوزير الذي تنتمي اليه مجموعة من الناس استقرت بالمكان. و كانت بلدة بني الوزير أثناء حرب النقابات معادية للنقابيين و في صراع مع هؤلاء المسيحيين الهائجين القادمين من بلنسية و الذين كانوا يسعون الى تنصيرهم قسريا. و قد ثار مسلمو بني الوزير سنة 1525 على اثر صدور قرار كارلوس الأول القاضي باجبار المسلمين على التنصر.

إلى الانضمام إليهم، فاضطر حاكم بلنسية للخروج لإخضاعهم بألفي رجل و مدفعية فاستسلموا بعد حصار دام شهرا يوم 15 فبراير 1526 و خنعوا لتقبل المعمودية و أداء غرامة إثني عشر ألف دوكا بدل عقوبة المصادرة و العبودية التي استوجبوها، و مع ذلك فقد تمكن الكثيرون من الهروب و الوصول إلى جبال اشبدان إحدى أهم السلاسل الجبلية التي تفصل مملكة أراغون عن مملكة بلنسية، و قد حضر إليها كل المسلمين الذين أرادوا الاحتفاظ بعقيدة رسولهم و كانوا أكثر من أربعة آلاف رجل مصممين على الكفاح حتى الموت، و تحصنوا في فجاج تلك السلسلة الوعرة في تحد كبير للإمبراطور كارلوس الخامس و عينوا مزارعا يقطن في الغار يدعى كربايو لحمل تاج عبد الرحمن و يعقوب فقبل بدون تردد ذلك المنصب الخطير و بدل اسمه باسم سليم المنصور. و قام هذا الأخير بتحصين كل منحدرات السلسلة بواسطة مدرجات و تكسير الصخور و حفر ما يسمونه بالحافات و الروابي لكي يهدها من الأسفل و ضاعف العوائق إلى ما لا نهاية و ملأ تلك الناحية المتضرسة بالاستحكامات، وقد منحه تمهل حكومة بلنسية الوقت الكافي لإتمام كل هذه الأشغال بقليل من الناس الذين كانوا معه. و أما العاهل القوي الذي ملأ صيت انتصاراته أوربا فكان ينقصه الجنود لذا ظهرت الحاجة إلى سحب المال أو اقتراضه على أساس أن يتم رده بعد الانتصار من إيرادات الثروات المصادرة باسم الإمبراطور من مناجم المكسيك و البيرو و التي يمكنه التصرف فيها . و قد شكل بهذا القرض جيش مكون من ثلاثة ألف جندي من المشاة استطاع النبلاء جمعه و وضع تحت إمرة دوق دي سغوربي الذي زحف على المسلمين ليهاجمهم في قلاعهم البرية، و تعرض المسيحيون عند قيامهم بالهجوم الأول في أبريل 1526 لضرر كبير بسبب أكوام الحجارة التي اقتلعت من أعالي الصخور و ألقيت عليهم حتى اضطروا إلى الانسحاب

نحو سغوربي بعد أن فقدوا ستين رجلا و عدوا مائتي جريح فهمهم الجنود معتقدين أن الدوق تهاون في الحرب لأن معظم الثوار كانوا أتباعا له في السابق، و قد غمت هذه الفكرة الجميع زيادة عن الرعب الذي عانه الجيش بسبب الحجارة الضخمة المتدحرجة من أعالي القمم المنيعة، فذهب الجيش شذر مذر و انسحب الدوق إلى أراضيه و عاد النبلاء إلى بلنسية.

و جهز سليم المنصور الثلمات في حصنه البري و اقتلع الصخور لكي يقذفها على أعدائه مستغلا تراجع المسيحيين الذين أضاعوا وقتا ثمينا ببلنسية في مجالس حربية غير نافعة فنزل إلى القرى المجاورة للسلسلة بقصد التزود بالمؤن و الحصول على موارد في وادي ميخارس، و دخل في إحدى الغارات المصحوبة دائما بالتخريب قرية بحرية في شيلتش فنهب البيوت و ذبح عددا من السكان المسيحيين ممن لم يقدروا على الهروب و هدم الكنيسة و سلب تحفها و حقة القربان مع القرابين المقدسة و حمل كل ذلك إلى أعالي الجبال.

و كانت الفجيعة التي استولت على بلنسية بخبر جريمة تدنيس الأشياء المقدسة عظيمة يعجز عنها الوصف، و أسرع الجميع عند مشاهدة القربان المقدس في أيدي المسلمين نحو سلسلة إشبدان لإنقاذ المجسم الثمين للمسيح، بيد أنه لم يسمح للإكليروس بالذهاب إلى الحرب ككل من رغب في ذلك و اقتصر دورهم على الصلوات مثل النبي موسى عندما كان يوشع يحارب أعداء شعب الله، و كسيت المذابح بالحداد مثلما في أسبوع آلام المسيح و لبس القساوسة ثيابا سوداء أثناء القداس الإلهي في سائر كنائس الأبرشية و أغلقت المحاكم و نشرت راية المدينة بجانب راية الحرب الصليبية و سارتا مرفقتين بموكب حدادي إلى أن علقتا بباب سرانوس، و تم خلال ذلك تقديم تبرعات كثيرة لأجل جمع المال و شكل

العديد من المتطوعة المنضمين إلى جمهور الأسياد و النبلاء من سائر المملكة جيشا حماسيا.

و كان نهب شيلتش قد حدث في أواخر مايو و في الأول من يوليو خيم نحو ستة آلاف متطوع حول سلسلة إشبدان و كان يترأس هذه الحملة دوق سغوربي فهزم المسلمين الذين كانوا يترددون خارج الجبل و طاردهم حتى جعلهم يتقهقرون نحو السلسلة المذكورة و استولى على غنيمة بقيمة ثلاثين ألف دوكا، و منح مفوض البابا كلمنطي السابع باسم الحبر الأعظم من البلاط الغفران التام لكل من شارك في هذه الحرب ضد مسلمي إشبدان. و قضى المسيحيون شهرين و هم يتسلقون تلك المرتفعات بحماس كبير و ينزلون منها متدحرجين و في غالب الأحيان مختلطين مع الصخور الهائلة التي كان المسلمون يلقون بها من القمم، دون أن يتمكنوا من كسب مواقع خنادق تلك السلسلة الشاسعة و الوعرة و الحصينة. ولما شاهد دوق سغوربي أن سمعته العسكرية باتت تصطدم بتلك الصخور و سمعهم يعزون رغبته في تجنب خسائر عديمة الجدوى إلى عدم الحماس طلب من الإمبراطور إعطاء الأمر لفرقة من الألمان كان قد استقدمها من الأراضي المنخفضة و كانت على أهبة الإبحار نحو إيطاليا لكي تنضم إلى الجيش البلنسي. فوصل ثلاثة آلاف ألماني يوم 17 سبتمبر إلى ميدان البلنسيين يقودهم الكلونيل الشهير روكندولف و في الغد استولوا على السلسلة المقابلة لاشبدان و التي كانت تستخدم كممر نحوها، و لم يكن سليم ينتظرهم من تلك الجهة حيث تركها بعد مقاومة قصيرة فاتخذت منذئذ تلك النقطة اسم جبل المسيحيين. و عزم دوق سغوربي انطلاقا من الموقع الذي استولى عليه القيام بمطاردة عامة في السلسلة من أربع جهات مختلفة في آن واحد، وقسم قواته إلى أربع هيئات، و هكذا تحركت عند فجر يوم 19 سبتمبر الكتيبات الإسبانية الثلاث و الكتيبة الألمانية وتسلق

عشرة آلاف مسيحي في المرة عبر تلك الجبال الوعرة لأجل إخضاع المسلمين الذين تقلص عددهم بسبب الهجومات السابقة إلى نحو ثلاثة ألف رجل، و بدا الجبل كأنه يغرق و ينهار و أخذ تدحرج الحجارة يفتح ثلمات في صفوف المسيحيين فيتم سدها مباشرة بمحاربين جدد بينما تتيح الوقت للمسلمين كي ينسحبوا، و كان كل موقع يكلف معركة جديدة و قتال بنفس الحدة من الجانبين، و لم يكن المسيحيون ليسمحوا بمعاملة المغلوبين معاملة حسنة كما لم يطلبها هؤلاء بدورهم. و شرع المسلمون يتقهقرون من موقع لأخر حتى بلغوا القلعة التي لهم في قمة الجبل حيث احتشدوا، و وصلت الكتيبات الأربع في الوقت نفسه فبدأ المشهد الرهيب للمذبحة و المجزرة و مات سليم المنصور و السلاح في يده و قتل ألفان من المسلمين و تعجل الأخرون من خلال السلسلة و فروا نحو مويلا دي كرطس ثم استسلموا في 10 أكتوبر. و كلف هذا الانتصار المسيحيين باهظا لأنهم تركوا في ساحة الوغى أعدادا كبيرة من الأموات و الجرحى من بينهم كثير من النبلاء و الأسياد، و بلغت قيمة غنيمة هذا الانتصار الذي بيع علانية نحو مائتي ألف دوكا، و دخل الجيش المنتصر بلنسية وتفسح منتشيا بنصره عبر شوارعها ثم قصد البلدية ليضع فيها راية المدينة و الكتدرائية ليضع راية الصليبيين. و ركب الألمان البحر بعد أيام قليلة في اتجاه إيطاليا، و أعطيت الأوامر بتعميد المسلمين القلائل الذين ظلوا بدون أخذ الماء المقدس، و أحرقت في سوق بلنسية جميع الكتب العربية كما تم في وقت سابق في ساحة باب الرملة بغرناطة.

و في الوقت الذي ثار فيه المسلمون في بلنسية حاول إخوانهم أيضا إثارة الفتنة في مملكة أراغون و حملوا السلاح في فيافليث و ريكلا وكلاندا و مويل و في مراكز أخرى، إلا أنهم أجبروا على التنصر بنفس الطريقة التي اتبعت في بلنسية و ذلك بجعلهم يختارون ما بين الطرد بدون وسائل

العيش في مكان آخر و التنصير. و ذهب سعي الكونت ريباغورثا و معه باقي الأسياد الأراغونيين سدى بإظهارهم للعاهل أن ليس هناك خطر من بقاء المسلمين و أنهم نافعون و لا يمكن الاستغناء عنهم لأجل ازدهار البلاد إلا أن كارلوس الخامس ظل عنيدا برأيه. و هكذا اختفت في عام 1526 جميع المظاهر الخارجية للإسلام من سائر أقاليم إسبانيا و لم يعد المسلمون يعرفون بهذا الاسم و إنما دعوا بالمسيحيين الجدد أو موريسكوس في كل القرارات الرسمية و في سائر الوثائق العمومية، و غدت حالتهم كئيبة: فمن جهة ركزت محكمة التفتيش عليهم عينها اليقظة دائما كمشتبه فيهم بالإلحاد لكونهم مسيحيين جددا، و من جهة أخرى كان العامة يمقتونهم ويرون فيهم أعداءهم لكونهم موريسكيين، لذا كان انصهارهم في الشعب الإسباني مستحيلا. لقد حكم على أحفاد موسى و طارق بالإبادة إذ لم تكن العلامة المقدسة للدين التي رسمت على جباههم كافية لإنقاذهم، و بذلك ختمت مطاردة و تم الشروع في أخرى و انتهت حرب الأفكار و بدأت حرب العادات و التقاليد و انضم التعصب للأهواء الدينية إلى التعصب للحضارة الأوربية.

و لم يكن مسلمو غرناطة أقل إخلاصا للإمبراطور كارلوس الخامس مما كان عليه مسلمو بلنسية و كما لم يكونوا أكثر سعادة جراء وفائهم له. و عندما شهر الشعبيون في قشتالة راية الحرية و قام النقابيون في بلنسية ضد النبلاء تأثرت مملكة غرناطة كمن اهتز بنفس الرجة التي حركت الإقليمين، فقد كانت بها أعراق متباينة و سلطات متنافرة و جماهير مستعدة لإتباع أية راية معارضة للحكومة. و أثار مغامر جريء يدعى مركاديو الفتنة في الناحية الشرقية لمملكة غرناطة عند تخوم مرسية سنة 1520 و أعلن نفس المبادئ التي لدى الشعبيين في قشتالة فاستولى على أشكر و حصل على دعم لحركته من بسطة و من منطقتها الشاسعة،

فقام عندئذ مركيس دي مندوجر القائد العام لغرناطة مع بعض وحدات الجيش و أربعة آلاف موريسكي يرأسهم كل من دون فرناندو دي قرطبة و دون دييغو لوبث ابن حجر و دون دييغو لوبث وهم مسلمون تنصروا حديثا، فهاجموا بشجاعة و حطموا الشعبيين الذين لم يحتاطوا عند مغادرة أسوار أشكر و خوض المعركة ضد القشتاليين و الموريسكيين.

و كان الإمبراطور كارلوس الخامس في أثناء قيام دوق سغوربي بإخضاع ثوار إشبدان قد ذهب إلى غرناطة حيث دخلها يوم 5 يونيو 1526 دخولا عظيما حقيقة رفقة الإمبراطورة إيسابل دي برتغال التي عقد قرانه بها في إشبيلية، و أقسم في الكتدرائية بالحفاظ على قوانين وامتيازات تلك المملكة و من بينها حقوق المسلمين المهضومة و المدونة في معاهدة الملكين الكاثوليكيين. و شرع منذ قدومه في الإستماع إلى شكاوي قدماء المسيحيين ضد الموريسكيين يتهمونهم فيها بزيادة أعداد المنفيين[25] أو قطاع الطرق الذين يعيثون فسادا، و باستغلال الترخيص بامتلاك السلاح لتحويل دورهم إلى مخازن الأسلحة حيث يتزود المنفيون منها، و قدم الموريسكيون بدورهم مذكرة إلى الإمبراطور يعددون فيها الإهانات التي يتلقونها من القساوسة و الموثقين و المأمورين القضائيين. و قد أحال الإمبراطور كل ذلك على المجلس الذي اقترح تعيين خمسة من النظار لأجل التثبت من صحة الإهانات و كذلك كيف كان سلوك الموريسكيين في موضوع الدين.

25- عرف بهذا الاسم الموريسكيون الذين لجأوا نحو المناطق الجبلية من مملكة غرناطة النصرية القديمة في القرنين السادس عشر و السابع عشر و تعاطوا أساسا للتلصص، و كان معظمهم من أهل القرى المجاورة و قد شكلوا جماعات في الجبال حيث كانوا يمارسون شعائرهم الدينية بحرية على عكس الموريسكيين الحضريين الذين أرغموا على اظهار اذعانهم للمعتقدات و الطقوس الكاثوليكية. و قد لعب المنفيون دورا اساسيا في الثورة الموريسكية التي تزعمها ابن أمية سنة 1568 و اشتهرت بثورة البشارات.

و كان مظهر عدم الانحياز هذا يخفي في طيه مشروعا كان مدركا مقدما، فالنظار الخمسة كانوا أشخاصا لهم علاقة بالمسألة و رئيسهم كان هو دون غسبار دي أبلوس أسقف وادي آش و قد رأينا أسلوبه في مباشرة القضية في اللجنة التفتيشية التي أتم مباشرتها في بلنسية، و أما النظار الباقون فكانوا الفرنسيسكاني الأخ أنطونيو دي غيفارا الذي تألق حماسه المتعصب كثيرا في التنصيرات المكرهة للمسلمين في تلك المملكة، والحبرين كينطانا و بدرو لوبث و المجاز أوطييل و ينتمون جميعهم للمجمع الكنائسي لغرناطة. و إذن فرجال من هذه الطينة لم تكن الحاجة لإيصائهم بالصرامة في اختبار عادات الموريسكيين و ديانتهم. و خلص التفتيش إلى أن الشكاوى التي قدمها الموريسكيون كانت مدعمة بالحجج و خطيرة، و لكن خلص أيضا إلى أن كل المعمدين من قبل سبع و عشرين سنة لم يكن للإرادة نصيب في تنصيرهم و ظلوا مسلمين باطنيا و أنهم عادوا لممارسة شعائرهم القديمة علانية. و لكي يتفادى الإمبراطور هذه الفضيحة و الأكثر خطورة التي يمكن أن تحدث في تلك الفترة من رد الفعل و التبشير الديني فإنه استدعى إلى مصلى قصره مجلسا مكونا من ثلاثة عشر عضوا إكليروسيا و علمانيا و هم: مطران إشبيلية المفتش العام و مطران غرناطة و أسقفا وادي آش و المرية و تابعوهم و أسقف أوسما كمعرف للملك و أسقفا مندونييدو و أورنسي و صاحب أعلى منصب في الرهبانية العسكرية لقلعة رباح دون غرسيا دي بدييا و رئيس مجلس قشتالة مطران شانت ياقو زيادة على ثلاثة مساعدين من المحكمة العليا، و استدعوا جميعهم لتحديد مصير موريسكيي غرناطة. و قد تمت في المصلى الملكي بجانب قبري الملكين الكاثوليكيين مناقشة مصير وخلاص نصف مليون من الأنفس خلال عشر جلسات، و تقرر حينذاك انتقال محكمة تفتيش جيان إلى غرناطة لأجل كبح و ترهيب المرتدين، و بذلك انمحى

أخر سطر من المعاهدة التي فتحت للملكين الكاثوليكيين أبواب غرناطة.
و وافق الملك على جميع البنود التي صاغها المجلس وحولها إلى قانون في 7 دجنبر و أمر من خلال مرسوم- جزاء بأن يتخلى الموريسكيون عن اللغة و اللباس و عن الإسم العائلي الموريسكي، و أن تحسر النسوة عن وجوههن و أن يطلب الرجال من القاضي الإذن في حمل السيف و أن تحرر جميع الكتابات باللغة الإسبانية، و بأن لا يفصل لهم الخياطون الثياب و لا ينقش لهم الصائغون الحلي على عاداتهم و أسلوبهم، و بأن تحضر القابلات من المسيحيات القديمات نفاس الموريسكيات حتى لا يستعملن الطقوس الإسلامية. و أوصى أيضا ببناء المدارس في كل من غرناطة ووادي آش و المرية بقصد تربية أبناء الموريسكيين و تعليمهم المسيحية.

و لم يكد الإمبراطور كارلوس الخامس يوقع مرسوم 7 دجنبر حتى أصدر أمرا بعد التماسات الموريسكيين و تقديم معونة من ثمانين ألف دوكا منحوه إياها علاوة على إتاواتهم العادية يبطل فيه مفعول المرسوم السابق الذكر طيلة المدة التي يستمر فيها رضاه الملكي، و يسمح لهم باستعمال اللغة العربية و الزي الموريسكي و حمل السيف و الخنجر في البلدة والرمح في البادية، و كما أنه وضعهم تحت رحمته فمنع محكمة التفتيش من القيام بمصادرة أملاكهم. و صرف تلك الثمانين ألف دوكا في تشييد صرح فخم في سور الحمراء في العام الموالي و هو قصر كارلوس الخامس الذي لم ينه انجازه أبدا.

و لم يفكر الموريسكيون في بلنسية بعد ظفر إشبدان و إذعان البرلمان سوى في استرضاء أسيادهم فحسب، و في التستر للقيام بالشعائر الإسلامية في الظل و في الصمت. و كانوا يرتجفون من محكمة التفتيش المتأهبة باستمرار لجعل بقائهم في وطنهم لا يطاق، ففي غرناطة لم يترك ضحايا الاضطهاد البلاد و إنما فروا للانضمام إلى العصابات المنظمة

للمنفيين أو قطاع الطرق الذين كانوا يسيطرون على الصخور الوعرة لجبل الثلج منذ وقت كثير. و أما في مملكة بلنسية حيث الشواطئ سهلة الوصول فإنهم قرروا الهجرة، و قام قراصنة بربروسا الذين كانوا يغيرون على سواحل بلنسية بحشد الموريسكيين بين المجذفين لسفنهم الكبيرة ووجدوا فيهم أيضا مرشدين كلما توغلوا نحو الداخل. و كان رعاة المعز من الموريسكيين يكتشفون من بعيد بأعالي الجبال سفن هؤلاء التي ترقبها الطلائع المسيحية المقامة على الساحل بين فرسخ و آخر فيصنعون لهم إشارات متفق عليها.

و اهتز الأسياد لما مست مصالحهم حينما رأوا هجرة الموريسكيين كما أنهم ارتعدوا لما شاهدوهم في تواطؤ مع القراصنة البربريين، لأنهم أدركوا حسب روح تلك الفترة احتمال وقوع إجراء الطرد الرهيب. و قد شكل الموريسكيون الثروة و الرأسمال بالنسبة للأسياد البلنسيين، و يعبر مثل قديم عن هذه الفكرة كالتالي: من يملك مسلما يملك ذهبا. و لهذا حاول هؤلاء النبلاء الحيلولة دون طرد الموريسكيين مهما كلف الأمر، ففي برلمان 1528 خولوا للإمبراطور إعانات مالية و اشترطوا بأن يعلن نائب الملك وممثله في برلمان مونثون عفوا عاما و التمسوا بأن تخصص مصادرة الثروات المفروضة بمقتضى حكم محكمة التفتيش لفائدة ورثة الموريسكي المارق، و قد مر هذا المقترح في برلمان 1535 و وافق عليه الإمبراطور.

و أخذ الموريسكيون يفرون أو لا يؤدون إيجاراتهم لما صاروا مضايقين من قبل محكمة التفتيش فطلب الأسياد عام 1537 و وافق الملك على طلبهم بأن يسددوا هم الغرامات المفروضة على الموريسكيين من طرف محكمة التفتيش، و بأن يخضعوها لنظر حاكم بلنسية فإن أعلن أنها فرضت بسوء يدفع المفتشون ضعفها. و لأجل تعويضهم عن خساراتهم فإن النبلاء نالوا عام 1528 حق الاحتفاظ بالسلطة القضائية التي يملكونها

على المسلمين و على المتنصرين مبقين تسديد الضرائب القديمة. و قد صارعت محكمة التفتيش ضد الأسياد في هذا المضمار فحصلت من البابا على براءة مؤرخة في 15 يوليو 1539 يأمر فيها الأسياد تحت طائلة الحرم الكنسي بإعفاء أتباعهم من جميع الضرائب التعسفية حتى لا يظنوا الرهبة في الدين المسيحي و هم يرون المسيحيين القدامى يعاملون بطريقة متفاوتة. و في إطار هذا الصراع الدنيء للمصالح فإن المفتشين و النبلاء دخلوا في مصالحة فيما بينهم فوافق المفتشون على أن يرث الأسياد الأموال المصادرة بمضرة من الوارثين غير الشرعيين، و بأن تؤدى حصة من الريع التفتيشي من قبل الجماعات و الحصة الأخرى من طرف المارقين الذين ستتفهم معهم المحكمة المقدسة لتخليص العقوبات الجسدية بالمال أي عقوبة السوط و العقوبة الزمنية بالأشغال الشاقة. و أما حظر اللغة العربية و اللباس العربي الذي طالما أصر المسيحيون على حصوله فتقرر في بلنسية يوم 5 دجنبر عام 1528 و حددت المهلة التي عينها كارلوس الخامس لموريسكيي بلنسية في أربع سنوات، و قد امتد هذا القرار إلى موريسكيي قشتالة في شهر يناير من 1529.

و هكذا رأينا التضحية المالية التي اشترى بها الموريسكيون في غرناطة تأجيلهم غير المحدد، و قد جعلت محكمة التفتيش نفسها بهذه الروح الغازية التي تشكل الصفة المميزة لوجودها تملك معرفة الأسباب عن طريق نقض هذا المرسوم كما لو أن اللغة العربية و الثياب من صنع إسلامي يعدون إلحادا، فقامت باستخلاص فوائد الغرامات المفروضة بسبب ذلك.

و اتخذ تدبير آخر كذلك في برلمان سنة 1537 إذ تم منع الموريسكيين من الاقتراب من الشواطئ و من تغيير المسكن و السفر بدون إذن الأسياد، و حرم أيضا على كل موريسكي تحت طائلة الموت أو الأشغال

الشاقة افتداء أي قريب من الاسترقاق و لو كان الأب لابنه حتى لا ينقص حجمهم بذلك، و كانت الهيئات الثلاث في البرلمان : الإكليروس والعسكر و النبلاء هي من طالبت بهذا الإجراء الهمجي والشنيع. و لكننا نشك حاليا في صحته لعدم قراءته في «القانون البلنسي و ما قيل حول هذه القوانين المسماة الشاذة».

و كان يطلب من الموريسكيين الإقرار بالديانة المسيحية بشكل صريح ولا يتم الاعتناء بتزويدهم بوسائل التعليم، و كان القساوسة قلما يقيمون في القرى لأن مرتبهم كان يسيرا و يحصل من الإستغلالات الكنسية القديمة التي كان حائزوها يمانعون في سدادها و يضنون. و قد عين الإمبراطور في 14 يناير 1534 مفوضين إثنين لكي يقطعوا هذا الداء من جذره وأمر سائر سلطات المملكة بتقديم المساعدة التي يحتاجونها، و تم تحذير الموريسكيين في 7 مايو كي يستقبلوا القساوسة الذين أقرهم المفوضان في القرى استقبالا جيدا، و فتحت يوم 3 يوليو مائتان و واحد وخمسون كنيسة جديدة شيدت على نفقة الإكليروس البلنسي و الأراغوني وتحت مراقبة الملك و المفتشين، و قام الرهبان الجدد بتعليم أصول الدين والوعظ كرعاة جيدين لنعاجهم. و أنشئت سنة 1536 مدرستان الواحدة في بلنسية و الأخرى في طرطوشة قللتا من مداخيل الأسقفية و أنقصتا الإيرادات التي كانت تجبيها بعض الأديرة. و سنرى فيما بعد أنه بجهود الإمبراطور كارلوس الخامس هذه و المنسوبة للحماس الواضح للمفتش العام دون ألونسو منريكي الذي كابد كثيرا من الكدر من الإكليروس لانتقاصه من مداخيله حتى شكاه إلى البابا، قد تحقق تعليم الموريسكيين و جعلهم مسيحيين حقيقيين.

9

تأديب موريسكيي غرناطة – الثورة في البشارات.

تنازل كارلوس الخامس عن العرش اختياريا في الدير مذلا جبينه المتعب بكثرة التيجان، و خلفه ابنه فليبي الثاني الذي ولد في إسبانيا و أقام فيها بشكل مستمر و تبنى تقاليدها و عاداتها و لغتها، و وطد بها عاصمة حكمه و مركز سياسته و هدف مشاريعه و اهتماماته. و كان متدينا إلى حد التعصب مما تسبب في ثورة بالأقاليم الفلامانية حيث سالت دماء غزيرة بهدف خنق الأفكار البروتستانتية التي انتشرت هناك، و انتهى عدم التسامح الديني إلى فقدان التاج الإسباني لتلك الأقاليم الرائعة، وكما اقتضى كذلك أن تنشب في ملكه ثورة الموريسكيين في غرناطة.

كان الموريسكيون يعانون من الإهانات و من ثقل الضرائب الفاحش و جشع محصليها، و أيضا من عتو الذين كانوا يحاجون بمطاردة المجرمين فيأوون إلى قرى الموريسكيين و يعيشون على نفقتهم و يرتكبون خروقات كثيرة في حقهم، فكانوا كما يقول المؤرخ مارمول: «كانت الجنايات التي يرتكبونها تفوق عدد المجرمين الذين يسكونهم». و انضافت إلى كل ذلك التدابير التي اتخذها الملك فليبي الثاني ضدهم، ففي جلسات الجمعية العامة التي أقامها في قشتالة لدى عودته من الأراضي المنخفضة سنة 1560 حرم على الموريسكيين استخدام العبيد السود بدعوى الأضرار الكثيرة التي يسببونها إذا ما استمروا في هذه التجارة، و لما يسهم في تزايد أعداد الموريسكيين ثم خطر تعليم أولئك العبيد العقيدة المحمدية سريا وهم

الذين يأتون من بلدهم بدون أية فكرة عن الدين، و ذلك بفرض غرامة عشرة ألف مرابطي و مصادرة المملوك، و كما حظر عليهم في نفس الوقت المتاجرة في الذهب و الفضة وسبيكة المعادن. و قد تظلم الموريسكيون من ذلك لأنهم حرموا من ميزة دون أي تعويض و انتزعت منهم السواعد الضرورية للعمل الزراعي في الحقول و صاروا ينعتون بالمشتبه فيهم بينما كان الكثير منهم يفتخرون بكونهم مسيحيين جيدين. لكن الملك لم يعدل مرسومه بشكل كامل و إنما منح الحظوة ببراءة ملكية للأشخاص غير المشتبه فيهم ، و قد كلف التحقق من هذه الصفة نفقات و استياءات أكثر من الفوائد التي تم جنيها.

و وجه فليبي الثاني في تاريخ 14 مايو 1563 براءة ملكية إلى القائد العام يلزم فيها الموريسكيين بتقديم أسلحتهم و رخص استعمالها في أجل خمسين يوما تحت طائلة ست سنوات من الأشغال الشاقة مع وجوب ختم السلاح بطابع القائد العام الذي له حرية اختيار العقوبة التي ستنزل بالذين يزورون طابعه. إلا أنه لم تقدم سوى أسلحة قليلة و أخفيت أخرى لأنه بدأ يبرز التفكير في ثورة قريبة، و كان كثير من الموريسكيين من ذوي النسب الرفيع من نسل بعض ملوكهم القدامى قد تخلوا عن حمل السلاح حتى لا يضعون طابع أسلحة مندوجر في قبضة سيوفهم. و قد تضاعفت بهذا الإجراء الدعاوي و العقوبات كما لو أن الهدف كان هو دفع الموريسكيين للثورة، و أوصد أمام هؤلاء باب الأمل الوحيد لتجنب العقوبة و هو ملجآن لا ينتهكان : المعابد و أراضي الإقطاع، فقد ألغى قرار ملكي صدر في عام 1564 حصانة الأراضي الإقطاعية و حصر أراضي الكنائس في ثلاثة أيام فحسب. و هكذا وجد الموريسكيون المساكين أنفسهم بعد كسر هذا الحاجز مضطهدين بحدة من طرف أناس الهيئة القضائية الذين أحيوا دعاوي قديمة كساها الغبار في الأرشيفات، و الذين

حملوا عدم الأمان و الذعر إلى كنف العائلات، فخرج الكثيرون إلى الجبال و تلقى المنفيون و قطاع الطرق تعزيزات ضخمة و خيموا طلقاء في البشارات و بمنطقة رندة الجبلية. و لما غدا اتفاق السلطات أكثر وضوحا لأجل الختم مع قطاع الطرق الجدد هاجت النزاعات القضائية و ماج الجدال حول الامتيازات بين القائد العام و المحكمة العليا أكثر من أي وقت مضى، و بدل أن يركز الملك القوة في يد واحدة فإنه قسمها بين السلطتين ليبطل المنافسة بينهما، فأصبح بإمكان رئيس المحكمة و رؤساء البلديات إقامة الجيوش و إمارتها و أمسى من حق القائد العام تفتيش الساحل البحري، و لم تكن الفرق الصغيرة التي شكلها رؤساء البلديات كما يقول المؤرخ مندوثا في كتابه «حرب غرناطة» (لا وافين لضمان الحياة و لا أقوياء للمقاومة). و اعتبر الموريسكيون مذنبين أينما وجدوا و حيث لم يوجدوا عند القضاء العسكري و القضاء المدني و القضاء الكنسي لأنهم جميعا كانوا مع الاحتشاد عند المنفيين أو قطاع الطرق الذين فاق عددهم عدد السكان المسالمين بالقرى. و تم اتخاذ تدابير صارمة مختلفة لكن غير فعالة لقمع هؤلاء قطاع الطرق الذين بلغت شجاعتهم حد التغلغل داخل غرناطة، فكانوا يدخلون ليلا إلى البيازين و يخطفون نساء و أطفال المسيحيين و يغتالون الرجال ، و وصلت الحال إلى أن المسيحيين لم يجرؤوا على الخروج إلى الشارع ليلا و لا إلى الفحص نهارا إلا إذا كانوا في عدد وافر، و اتجه كثير من الشبان المسيحيين القدامى إلى التسلح بدورهم فكانوا يخرجون في الليل لاصطياد الموريسكيين في الشوارع، فترى الجثث مع مطلع الفجر مرمية في الأزقة و البساتين، فكانت تلك هي الحالة الكئيبة التي قدمتها غرناطة الرائعة في أواخر عام 1566.

و كان دون بدرو غريرو مطران غرناطة و أحد كبار علماء اللاهوت الذي تألق بالمعرفة العميقة لمبادئه في المجمع الديني بطرينطو قد أظهر

لفليبي الثاني باسم البابا بيو الرابع الحاجة لمعاملة الموريسكيين بالقساوة و عدم التساهل في دولته مع رعايا مدنسين بالإلحاد، و دعا لدى مشاهدته حالة غرناطة الأساقفة التابعين لسلطته إلى مجمع ديني إقليمي اقترحوا فيه على الملك تطبيق قرار عام 1526 المعطل من قبل الإمبراطور كارلوس الخامس، إلا أن الملك و إن كان جد متدين إلى حد التعصب و جد غيور على حقوق التاج أفهم المطران بأن المجمع الديني الإقليمي ليس بإمكانه التدخل في الشؤون السياسية و إنما في المواضيع الكنسية، و استنكر شكل البيان و تبنى مضمونه و اعتبره من وضع بعض الخواص و ليس من المجمع الديني ثم أحاله على مجلس خاص شكله دون دييغو دي إسبينوسا أسقف سيغوينثا و رئيس مجلس قشتالة، و الدوق دي آلبا، و رئيس دير سان خوان أنطونيو دي طليدو، و نائب مستشار أراغون دون برناردو دي بليا، و أسقف أوريولة، و المفتش دون بدرو دثا و المجاز منشاكا والحكيم بلاسكو عن المجلس و الغرفة الملكية. و قد اكتفت هذه الجمعية بما اقترحه المطران غريرو و نصحت باستنساخ مرسوم كارلوس الخامس بشكل أكثر صرامة و هو القرار الشهير الذي حظر اللغة العربية في السر و العلن، وأدان الأزياء و الأسماء و التقاليد الموريسكية و لم يسمح فيه للموريسكيين بتكوين أمة على حدة و لا تركوا لينموا كجزء من الأمة الإسبانية. و قد وقع الملك هذا القرار في 17 نوفمبر من عام 1566 و الذي سيثمر نتائج جد مشؤومة، و لأجل تنفيذ مراسيمه فإنه تم تعيين المفتش دون بدرو دثا رئيسا للمحكمة العليا بغرناطة فقام بطبع المرسوم سريا و استعد لإشهاره بشكل آن في غرناطة و في كل بلدات المملكة في موكب غير معتاد و على صوت الأبواق و وقع الطبول و ذلك في الأول من شهر يناير 1567 عشية اليوم الذي كان المسلمون فيه قد فتحوا أبوابهم للملكين الكاثوليكيين منذ خمس و سبعين سنة تحت وعد الاتفاقات.

و لم يكن الموريسكيون مرعبين و لكن كانوا حانقين و مضطرمين بالغيظ و مستعدين للموت بدل من أن يعانوا كثرة الإذلال، و حاول شيوخهم و أثرياؤهم و أصحاب النفوذ عندهم مساندين من كبار النبلاء التحدث إلى الرئيس دثا لكي يبعد البلوى عن الشعب المرتد إلى المسيحية دون جدوى، و كما ذهب توجههم إلى الملك فليبي الثاني سدى، وكان القائد العام المركيس دي مندوجر نفسه قد ذهب إلى مدريد ليطلب تعطيل القرار كتصرف منصف و لتفادي الإنقلاب العام، بيد أن الملك استمع للبيانات الحماسية للمفتش دثا و أعاد القائد العام إلى غرناطة ولكن لمساندة قراراته بالسلاح.

و اقترب آخر يوم من دجنبر 1567 الذي توجب فيه على النساء الموريسكيات ترك ملابسهن الحريرية و زينتهن العربية، و صدرت الأوامر للقساوسة بأن يعلنوا في سائر الكنائس عن تسجيل جميع الأطفال و البنات من سن الثالثة إلى الخامسة عشرة لأجل إلزامهم بالذهاب إلى المدارس لتعلم اللغة الإسبانية و العقيدة المسيحية، و تم هدم الحمامات التي كانت تشكل ملاذ الموريسكيين و طرد جميع الغرباء عن المدينة وإجبارهم على العودة إلى مساكنهم. و ترددت لجن جديدة على الرئيس متظلمة من الأضرار الجديدة فلم تلق لديه لا بشاشة عند الاستقبال و لا ترحابا بطلباتهم، فذهب المفوضون حينئذ إلى بلاط الملك يقودهم دون خوان إنريكث أحد الشخصيات الأكثر سمعة في غرناطة لكن دون بدرو دثا أرسل كتابا إلى رئيس المجلس الكاردينال إسبينوسا العدو المميت للموريسكيين. و هكذا أخفقت كل التبصرات الأكثر حكمة و جميع الحسابات الأكثر تأسيسا لسياسة حذرة أمام قلنسوتين كما قال بظرافة القائد العام مركيس دي مندوجر ملمحا إلى المفتش دثا و إلى رئيس المجلس إسبينوسا، و لما كان الملك واقعا تحت تأثير هذا الأخير فإنه لم يفتح حتى المذكرة

التي سلمت له و أصدر أوامره بأن يختلفوا إلى الرئيس دون بدرو دثا.

و لما أضحى المسلمون بدون أمل في علاج محنتهم و لما كانوا يعتقدون في الخرافات و بعد مراجعتهم النبوءات المسماة بالجفر المحفوظة في بعض الكتب العربية التي أفلتت من نيران المطران دي سيسنروس، فإنهم اختطوا المشروع الجريء للمقاومة بالسلاح، و كانت فكرة مشروع الثورة من وضع صباغ يدعى فرج ابن فرج[26] من عائلة ابن السراج النبيلة و هو رجل ذكي و حار العريكة و جريء، و قد قام بعقد عدة مفاوضات مع شخصيات موريسكية أخرى كانت موجودة بطريق الصدفة في غرناطة لتتبع الدعاوي في محكمتها العليا فصاغوا مشروع المؤامرة و كانت السرية هي روح عملياتهم، و قبل أن ينفذوا مخططهم أزمعوا على سبر إرادة سكان البشارات، و لكي يفعلوه بكثير من المواراة فإنهم بعثوا بثلاثة موريسكيين من ذوي الثقة للطواف بالبلاد بحجة القيام بجمع تبرعات عامة لأجل تشييد مستشفى خارج المدينة لفائدة المرضى المسيحيين الفقراء، و كانت الحكومة قد رخصت لهم بالقيام بهذا العمل الإحساني. وهكذا جال المفوضون في القرى و المدن و في كل الساحل و اتفقوا مع زعماء المنفيين أو قطاع الطرق القاعدة الجيدة لتشكيل الجيش، و اطلعوا بشكل دقيق على استعداد السكان و على السلاح الذي يملكونه و خبروا الأماكن الشاطئية حيث يسهل إنزال المساعدات التي ينتظرون استلامها من مسلمي إفريقيا و من الأتراك. و عاد المفوضون بعدما أنهوا مهمتهم بالدقة و السرية التامة و اتفق المتآمرون على الصدع بالأمر في يوم الخميس المقدس 14 أبريل 1568 و هو اليوم الذي ينشغل فيه المسيحيون بالأسرار الأكثر قدسية لدينهم فيكونوا غير منتبهين.

26- قائد حربي موريسكي برز في حرب البشارات (1568-1571) اشتهر بقساوته أثناء المعارك، و قد عينه الملك محمد ابن أمية وزيرا أعظم. و مات في المواجهة مع قوات الأمير دون خوان دي أوستريا.

و دلت الضجة الغامضة التي تسبق دائما العواصف و الرجات السياسية من جهة و أنفة الموريسكيين من جهة أخرى الحكومة على قرب وقوع خطر ما، فقام الرئيس دثا يوم 5 أبريل باعتقال عدد كبير من السكان المشتبه فيهم من بين الأثرياء و ذوي النفوذ من العنصر الموريسكي كرهائن و سحب رخص استعمال السلاح الناري من كل الذين كانوا يملكونها حتى آنذاك، و أما القائد العام مركيس دي مندوجر الذي كان ينهج دائما أسلوبا يتسم بالاعتدال و التهدئة فحضر إلى البيازين و نصح سكانها بالسكون و الطمأنينة. فلما رأى المتآمرون الحكومة مرتابة في أمرهم أرجأوا تنفيذ مشروعهم، و حتى يبعدوا عنهم كل شبهة دفعوا العناصر الأكثر نفوذا و ثراء للمثول بين يدي الرئيس دثا لإظهار أسفهم على الاحتياطات التي تتخذ في حقهم و ليجاهروا بمسيحيتهم الصادقة وإخلاصهم.

و كان الرئيس دثا بصفته مفتشا قد أبقى على حالة الذعر و الفزع في وسط المسيحيين بغرناطة، و كان ذلك هو الخطر لأن زلة طائشة من جندي وحيد كانت كافية لتضع الطمأنينة في مأزق شامل، ففي ليلة 21 أبريل رأى حارس الحمراء بعض الجنود المسيحيين يصعدون هضبة البيازين وفي أيديهم مشاعل الريح فظنهم موريسكيين و دق ناقوس الحراسة الليلية إشعارا بالخطر، فلاذت النسوة بالمعابد و الحصون و خرج الرجال مفزعين و شبه عاريين إلى الشوارع و الساحات يحملون السيوف و البنادق، وترك قساوسة سان فرنسيسكو صوامعهم و حضروا مسلحين إلى الساحة الجديدة، و احتل الرئيس و القاضي مخارج أزقة و دروب البيازين و تهيأوا في الليل لصد الموريسكيين الذين كانوا خلال ذلك محبوسين في ديارهم يرتجفون خوفا من تعرضهم للقتل. إلا أن مؤامرة الموريسكيين كانت قد أرجئت فحسب ذلك أنهم لما اعتقدوا أن احتراس السلطات بات وسنانا عادوا لاستئناف خيوط دسيستهم ، و هكذا أجرى أهل البيازين اجتماعا

سريا في دار بائع شمع يدعى عديلة[27] و قرروا إطلاق صيحة الثورة في ليلة فاتح يناير لعام 1569 لأن التنبؤات التي رجعوا إليها في كتبهم وعدت باسترجاع غرناطة من طرف أبناء الإسلام في نفس اليوم الذي ضاعت فيه، فأرسلوا مبعوثين لتجنيد حوالي ثمانية ألف رجل من قرى إقليم غرناطة وأرجبة فاجتابوا تلك القرى بحجة بيع البرذعات. و كان ألفان من المنفيين أو قطاع الطرق ينتظرون مختفين في مكمن يكثر به القصب بجانب سنش لإعطائهم الإشارة من قمة شانت إلينا ليتسلقوا سور الحمراء من جهة جنة العريف. و كما كان على الثورة أن تنشب في البيازين من ثلاثة أماكن بالمرة فتنطلق ثلاث مجموعات كبيرة براياتها المختلفة الألوان: القرمزي الذي سيستولي على باب فحص لوشة و الأصفر الذي سيحتل ساحة باب البنود (حاليا سان أغسطين العالي) ثم الأزرق القاتم الذي سيوضع على باب وادي آش. وكان على كل زمرة أن تبادر عند سماع صوت أو رؤية إشارة متفق عليهما إلى ضرب رقاب جميع المسيحيين المقيمين في دائرة قسيسهم الخاصة، و بعدئذ تنزل الطائفة الأولى عبر طريق فحص لوشة نحو المستشفى الملكي فتدخل من باب البيرة و تهاجم مبنى محكمة التفتيش و تطلق سراح الموريسكيين وتسجن المفتشين وتعذبهم. و تسارع الثانية عن طريق عقبة سان غريغوريو و الصفارين إلى السجن و أما الثالثة فتهبط خلال عقبة ثابت و طريق هداره حتى المحكمة العليا للبحث عن الرئيس بقصد قتله ثم يجتمع الكل عند باب الرملة، و ستصير المدينة بمساعدة الثمانية آلاف من المجندين في حالة دفاع.

و قد دبرت كل هذه المؤامرة بكثير من الكتمان لم تستطع الحكومة

27- موريسكي من أهل البيازين لم نتمكن من التحقق من إسمه، كان قد اجتمع في منزله عدد من الأعيان بقصد الإتفاق على إعلان الثورة في غرناطة. وكان من بين الحاضرين هرناندو الصغير وديبغو لوبث وميغل دي روخاس وأيضا كل من ابن فرج والثغري والمفرج والعطار وعدد من المنفيين.

اختراقه لأن اجتماعاتهم تمت بعلل معقولة و لم يتسلح سوى سكان البشارات فقط. و كان المركيس دي مندوجر الذي ساومته بعض الشكوك بسبب الجسارة التي أظهرها بعض الموريسكيين و الشتائم و السخريات التي كانوا يزدرون بها المأمورين القضائيين و وكلاء العدل المسيحيين ولاسيما تبجحهم المتغطرس بما كانوا يعلنونه من أنه سيظهر عالم جديد قبل متم 31 دجنبر و هو الأجل المحتوم للمرسوم، قد أظهر للملك حاجته لعدد كبير من الجنود، إلا أن دثا الذي كان عدوه بسبب بعض المنافسات بينهما حول حقوق اختصاصات كل منهما طمأن الملك بألا يخاف من أية ثورة لأن المسلمين ليسوا مستائين كما يقول نائب الملك و بأن المرسوم الأخير كان كافيا لكبح جماحهم و أن القضاة أو الحكام يملكون السلطة و القوى لإجبارهم على الطاعة، ثم إن المركيس يرغب في الحرب لأنه كان يتوعد بأن تسلم إليه القيادة و إلى ابنه كونت دي طنديبا. و نظرا لهذا التمثيل تمت الاستهانة بالعرض الحذر الذي قدمه المركيس فلم ترسل إليه التعزيزات في غرناطة.

لم يكن يسع عقل الرئيس دون بدرو دثا إمكانة قيام انقلاب عام فقد كان يظن كل ذلك دسائس أقوام خاسرة و عاجزة و معنية بقلب البلاد، و لم يكد يقتنع أيضا بقرب حدوث التمرد و وقوع الحرب حين أخبره أحد الآباء اليسوعيين و يدعى ألبوطودو يوم 23 دجنبر بأن موريسكيا تائبا أفشى له أثناء الاعتراف بمشروع الثورة، فاكتفى بتعزيز حرس تلك الليلة و القيام بدورية بنفسه في المدينة. و وصل الخبر في اليوم التالي بأن جماعة من المنفيين قامت في تلك الليلة ذاتها باغتيال عدد من الموثقين وقضاة المحكمة في بقيرة عندما خرجوا للجبال لقضاء عطلة عيد الفصح، و بأن النبيلين دييغو دي هريرا و خوان دي هرطادو اللذين قدما من ترايل بخمسين جنديا و حمل من البنادق لأجل تجهيز قلعة فرايرة و باتوا في

قديار قد ذبحوا في نفس محل ثوائهم، و قد وصل خبر هذه الاغتيالات إلى البيازين بواسطة جواسيس مخلصين من قبل أن تعلمه السلطات المسيحية.

و كان عمى الرئيس دثا كبيرا حتى أنه لم يفزع من هذا الحادث المشؤوم و عزاه إلى بعض المسلمين البربر الذين نزلوا بالشاطئ و انضموا إلى عصابات المنفيين لمهاجمة القرى كما حدث في مرات أخرى عديدة. و لم تزدد الاحتراسات في المدينة خلا مرة بسبب حادث صدر عن العناية الإلهية عندما قطعت عاصفة ثلجية فجاج الجبال و سبلها و حالت دون وصول كتيبة مؤلفة من ستة آلاف من الموريسكيين الجبليين إلى أسفل أسوار غرناطة و الذين خططوا للهجوم في ليلة 24 دجنبر. و كان رئيسهم ابن فرج قد قال لأهل البشارات بأن أهل البيازين سوف ينضمون إليه و أكد للأخيرين بأنه ستصله الثمانية آلاف رجل من إقليم غرناطة و من الفحص، و لم يتردد في عتمة الليل بمائتين من قطاع الطرق فقط استطاع تجنيدهم في قرى بنوط و شنش و القرى المجاورة من بلوغ أسوار غرناطة عند منتصف الليل و القيام بثقب السور و اختراق المدينة مباغتا الحرس من العسكر المسيحي، ثم اجتاز في شرذمتين من أتباعه عددا من الشوارع مصحيا سكان البيازين بالصيحة المقدسة لدى المسلمين : «لا اله إلا الله محمد رسول الله»، فلما رأوا العدد القليل من الناس الذين معه أقفلوا عليهم أبواب منازلهم فاضطر عند سماع دق نواقيس كنيسة سان سلفادور المنذرة المسيحيين بالخطر إلى الخروج بأتباعه من نفس الثلمة التي دخل منها و الانسحاب إلى شنش مغتاظا و متذمرا من الورطة التي أوقعه فيها أولئك الجبناء و يائسا بعدما رأى نفسه محروما من نجدات الجبليين سكان البشارات الذين قطع عليهم الثلج طريق المرور في الجبال. و لم يتمكن المسيحيون في اليوم الموالي من معرفة ما حدث خلال الليل وقاموا بتفتيش البيازين بكثير من الحذر فوجدوا الكل ساكنا و هادئا وبقي المسلمون

لازمين ديارهم، و خرج القائد العام لمطاردة المنفيين عند سفح جبل شلير حيث قيل له إنهم توجهوا نحوه فلم يتمكن من إدراكهم ولا حتى من رؤيتهم فقد اختفى ابن فرج و أتباعه الجريئون بين الجبال المكسوة بالثلوج.

و اعتقد الموريسكيون أنه آن الأوان للتلويح صراحة بعلم الثورة، فاجتمع المنفيون و الموريسكيون الجبليون و نصبوا عليهم ملكا شابا ذا قدر وجيه سليل الخلفاء الأمويين السابقين دعي بينهم بابن أمية[28] و كان قد نصر تحت اسم دون فرناندو دي بلور إي قرطبة، و كان هو الفارس الرابع و العشرون لمدينة غرناطة، إلا أن شبابه الطائش جعله يبيع المنصب حتى يستطيع تسديد ديونه. و في ليلة عيد الميلاد التي شن فيها ابن فرج غارته السريعة على المدينة كان ابن أمية قابعا في السجن ففر مرفوقا بعبد أسود وبأرملة موريسكية كانت عشيقته و ذهب إلى بزنار للاجتماع بأقربائه البلور الذين يدين لهم بتاجه الخادع. و حضر فرج في اليوم الثاني من اعتلاء ابن أمية العرش الزائل الذي رفعه إليه الجبليون بفرقة من قطاع الطرق، و ما أن علم باختيار الملك المذكور حتى ادعى أحقيته بذلك المنصب لكونه أيضا سليل عائلة ابن السراج النبيلة و أن له تجربة أكثر في

28- نبيل موريسكي سمي عند تنصيره بفرناندو دي بلور أي قرطبة، ينتمي الى عائلة غرناطية مسلمة ادعت انتسابها الى الأمويين خلفاء قرطبة. و كان الملكان الكاثوليكيان قد منحا جده الذي اتخذ اسم هرناندو دي قرطبة مقابل تنصره و تعاونه اقطاعة البلور و حق العضوية في المجمع الديراني لغرناطة، و قد رسخت العائلة اقامتها في البلور الأعلى و أضافت تسمية البلور الى لقبها العائلي فأضحت قرطبة أي بلور محرزة على لقب البلوريين. و كان فرناندو دي قرطبة و بلور قد ولد مسيحيا في غرناطة عام 1545 و صار الفارس الرابع و العشرين لمدينة غرناطة أي عضوا بالمجمع الديراني البلدي. الا أنه بعد صدور مرسوم فليبي الثاني عام 1568 و اندلاع الثورة الموريسكية في البشارات انضم فرناندو اليها و ارتد عن معتقداته المسيحية و اتخذ اسم محمد ابن أمية و تحول بفضل تأثير عمه فرناندو الصغير الى الزعيم الرئيسي للثورة و تمت مبايعته ملكا. لكن الخلاف ما لبث أن دب في صفوف الموريسكيين أنفسهم، و حسب بعض المؤرخين فان الظلم و الطغيان اللذين أظهرهما ابن أمية فضلا عن مزاجه الاستبدادي و المرتاب جعلوه يفقد مساندة الثوار، فقتل في قصره بأندرش في 20 أكتوبر 1569، و يقول أخرون انه اغتيل من طرف موريسكيين عملاء للقشتاليين.

الحرب و أنه كان أول من أطلق الصيحة المقدسة للحرية في وسط الشعب الموريسكي. لكن أهل بزنار أيدوا بشكل حازم الانتخاب و بما أنهم كانوا على أهبة الحرب فإنهم اتفقوا جميعا لأجل تجنب الخصومات على أن يكون دون فرناندو بلور هو الملك و يكون فرج وزيره الأعظم و هو المنصب السامي بعد الملك الذي عرفه المسلمون.

و ذهب فرج يوم 31 دجنبر بخمسمائة من المنفيين أو قطاع الطرق لنشر الثورة في سائر أنحاء البلاد الجبلية بمملكة غرناطة من شواطئ بيرة حتى تخوم جبل طارق، فنادوا باسم محمد و قاموا بقطع رقاب كل من سقط في أيديهم من المسيحيين و أضرموا النار في الكنائس و سلبوا بيوت الفارين الملتجئين إلى الأبراج و المعابد و الذين اضطرهم الجوع أو الخوف من النيران إلى الخروج ليلاقوا هلاكا بطيئا و قاسيا و نشروا العذاب والدمار و الموت في كل مكان و نكلوا بالقساوسة بالخصوص فأضافوا السخرية و السباب العلني إلى تعذيبهم، و قد استنكر ابن أمية كثرة القساوة و حاول منعها و عزم على تنظيم أتباعه و اتباع سياسة جديدة وكذلك طلب المساعدات من إفريقيا. و هلك أكثر من ثلاثة آلاف إسباني بطريقة همجية بأمر من ابن فرج الشرس خلال ثلاثة أيام و لم ينج من قسوته حتى الأصدقاء الشخصيون للملك ابن أمية، إلا أن هذا الأخير لما وصل إلى قلعة لوجار في 29 دجنبر مقر أبي عبد الله المخلوع في زمن مضى قام بفصل فرج عن أتباعه المنفيين المرعبين بشكل حذر و بأمر منه تم إخطاره بأسلابه و عزله من منصب الوزير الأعظم الذي سلم إلى عم الملك ابن جهور الصغير. و هكذا فإذا كان الملك لم يجرؤ على تعريض عدم شعبيته للخطر بقتل ذلك الوحش فإنه أبطل تأثيره بالكامل، ثم أمر بخروج المنادي بمنع قتل النساء و الأطفال في المستقبل و جعل الرجال يخضعون للمحاكمة قبل إدانتهم.

و كان قد خيم على غرناطة جو من الإرتباك و فقدان الحماس لما شاع خبر الانقلاب العام للموريسكيين و النظام الذي اختاروه بانتخاب الملك، ثم الرعب الذي أحدثته الأعذبة و العقوبات البدنية القاسية التي كانت تفرض في كل الجهات على المسيحيين القدامى، و قد ندم إذذاك المؤيدون الأكثر تشددا للتدابير الصارمة و إن متأخرا على تسببهم بتهورهم في شتى المحن و في حرب جد قاسية. و كان مركيس دي مندوجر الحذر و الشجاع الذي شاهد إدانة مخططه للاعتدال و التهدئة و الذي أدرك عواقب فرض القساوة في غير أوانها قد وضع غرناطة في محيص من هجوم مفاجئ للثوار، و خرج يوم 3 يناير لمهاجمتهم في عقر جبالهم بجيش اقتصر على ألفين من المشاة و أربعمائة فرس و هو كل ما استطاع جمعه من سائر مدن و بلدات قيادته الحربية العامة، فمر إلى البذول و توقف بها و هي الأولى في إقليم غرناطة، و تعرضت طليعته في ليلة 4 يناير الى هجوم من طرف الموريسكيين الذين كانوا تحت إمرة فلاح ثري من الوادي يدعى شابة[29] إلا أنهم ردوا على أعقابهم و اضطروا للانسحاب إلى بقيرة حيث كان مستقرا ابن أمية، فأعدم شابة بسبب فشل هجومه الليلي. و مكث مركيس دي مندوجر بضعة أيام في دوركر ثم توغل في البشارات بعد أن تلقى تعزيزات من أبذة و بياسة و أماكن أخرى، و صد في 19 يناير الموريسكيين الذين تخندقوا في هضبة الأنجرون و قطعوا جسر طبلط الذي يسهل المرور في وهدة جد عميقة. و كان أحد الرهبان الفرنسيسكانيين ويدعى الأخ كريسطبال ملينا قد وصل إلى الفج و هو يحمل في يده اليسرى صليبا و في يده اليمنى سيفا و قد لم الإسكيم بالشريط و جعل الترس في ظهره و استند بقطعة خشب و قفز، فتبعه عدد من الجنود متحمسين سقط بعضهم متدحرجين و ماتوا في قعر الوهدة

29- لم نتمكن من التحقق من اسمه و لا من نسبه الصحيح.

ونجا آخرون كانوا محظوظين و أصلحوا الجسر فمر منه الجيش بأكمله فتم أخذ ذلك الفج المنيع عنوة. و ذهب المركيس إلى لانجرون لإغاثة أرجبة التي صمد المسيحيون في برجها سبعة عشر يوما و هم يقاتلون باستمرار، و بعد إغاثتها اتجه نحو بقيرة التي دخلها بعد هزمه ابن أمية الذي حاول منعه من المرور بربض الفخارين، و كانت الغنيمة التي أخذها هناك كبيرة و تم سبي كثير من النسوة و الأطفال، إلا أنه عانى في الوقت نفسه من نكبة أفجعت الجيش إذ أن الفرقة التي تركها مركيس دي مندوجر لحماية جسر طبلط باغتها نحو من خمسمائة من الموريسكيين الذين ذبحوا المسيحيين و البعض الذين بحثوا عن نجاتهم داخل كنيسة أحرقوهم فيها بوحشية.
وسعى الصغير عم الملك ابن أمية و قائد جيوشه إلى عقد صفقات مع القائد العام مركيس دي مندوجرفعرض عليه الاستسلام مقابل تصريح أمان لأشخاصهم، إلا أن هذا الأخير لم يقدم له شيئا لأول وهلة و اتجه صوب الجزء الثخين من الثوار إبان طقس قارس و مريع تاركا في الطريق كثيرا من الجنود جامدين، فوصل يوم 17 يناير إلى شبالش التي استسلمت قلعتها و كان يحتمي فيها ثلاثمائة من الجنود مع أكثر من مائتي امرأة التجأن إليها، و أمر المركيس بوضع النساء داخل الكنيسة لمزيد من الأمان فلما ضاقت بهن أمر بإخراجهن إلى البر و طوقهن بصف من الجنود. و حاول جندي مسيحي في ليلة 18 يناير خطف فتاة مسلمة في جنح الظلام إلا أنها قاومته فهددها الخاطف، و حدث أن حضر خليلها الشاب الذي كان يتبعها متنكرا في زي امرأة فضرب العسكري و انتزع منه سيفه و جرحه ثم هاجم بقية المسيحيين، فشاعت شائعة بأن الذكور أتوا متنكرين بين الإناث و هاجت مجموعة من الجنود لهذه الشائعة في عتمة الليل فقتلوا الغلام و باقي النسوة، و كما قال مؤرخ: و كانت الشقيات لا تملكن من دفاع سوى دموعهن و أنينهن الموجع و قد ذبحن بمضاء السيف وسقطن

قتيلات بالبريق المشؤوم للأسلحة النارية، و قد دامت المجزرة حتى مطلع الفجر. فاغتاظ المركيس و أمر بشنق ثلاثة من أكثر المذنبين و هو عقاب صغير لمثل هذا السلوك السيئ غير أنه يدل على ذم القائد العام لذلك الفعل الهمجي. و كان هذا الاستنكار ضروريا لأن الجنود المخالفين للنظام و المتعطشين للنهب و المتهيجين بالمقاومة كانوا ينهبون دور الموريسكيين ويذبحونهم، و لشدة حنقهم فإنهم كانوا يعاملون المسلمين الذين يعيشون مسالمين و بعيدين عن الصراع بنفس معاملة الذين يحاربونهم.

و كان المركيس قد شرع في مباحثاته من أجل إخضاع الزعماء الرئيسيين عن طريق العفو و الانتهاء من حرب جد مكلفة لإسبانيا بسياسة تصالحية و ليس بواسطة السلاح، و حتى يمحو في جزء أثر المذبحة الرهيبة التي وقعت في شبالش أمر بمنح الذين سلموا السلاح عن طواعية تصريح الأمان غير آبه بنميمة قواده الذين كانوا يحبذون المضي في الحرب بقساوة و يلومونه على لينه و تسامحه أكثر من اللازم مع الموريسكيين. و قام المركيس بالاتصال بابن أمية و كان قد دفعه لمكاتبته صديقه الكبير دون ألونسو دي غرناطة، فحثه على أن يسلم نفسه إلى الجيش المرابط في أندرش و أجيجر و الوجرات، إلا أن قائدا مسيحيا عديم التبصر قام بمهاجمة كتيبة مسلمة يوم 27 يناير مرغما إياها على الفرار بدون أن يتلقى أمرا عند عقبة ينيثا بالقرب من بطرنا بالضبط في الوقت الذي كان فيه ابن أمية يقرأ آخر رسالة تسلمها من مركيس دي مندوجر بخصوص خضوعه، و هذا ما جعله لا يثق و يرفض الاستسلام معرضا مصيره لا لخطر السلاح فحسب و إنما ليدخل في شكوك من عائلته نفسها حيث قتل حميه و طلق زوجته. و قام المسيحيون باكتساح قوات ابن أمية و الإستيلاء على بطرنا و أسر والدة الملك وأخواته مع حشد من النساء الموريسكيات، و أخذوا غنيمة كبيرة و أطلقوا سراح مائة و خمسين

من المسيحيات اللائي كن أسيرات. و كان المركيس يجهل الوقع الذي كان أحدثه في ابن أمية الهجوم المباغت على بطرنا حين كان على وشك الاستسلام فأمر بإيقاف قواته عند غابة البلوط و الإنتظار من حين لأخر رؤية قدوم ابن أمية لتقديم طاعته. و لم يكن الجيش يعلم بالمفاوضات التي جرت بين قائده و زعيم الثوار لذا أكثر من القيل والقال حول عدم السماح له بالزحف لمطاردة العدو، إلا أن مركيس دي مندوجر تابع في اليوم الموالي زحفه فطارد الهاربين و احتل أندرش، و واصل سياسته فترك المسلمين الذين جاءوا لطاعته في ديارهم و أمر بتسليم أكثر من ألف موريسكية من اللواتي كان يحملهن أسيرات إلى ثلاثة من المأمورين القضائيين بالبلاد بقصد إرجاعهن إلى ذويهن.

و عاد المركيس إلى أجيجر حيث مكث خمسة أيام يحضر للحملة على الوجرات و بلاد شلوبينية و المنكب المشهورين بطور الوجر الأعلى المكان الحصين في قمة جبال وعرة المنحدر، و لا يسهل الوصول إليه إلا عبر سبيل ضيق و طويل فقط خلال ربع فرسخ،و كان هناك نحو ألف رجل شجاع و قوي العزيمة تحت إمرة السمار[30] قاضي شتر. و كادت الجيوش الإسبانية يوم 11 فبراير أن تصل إلى القمة بعد قيامها بثلاث هجومات أظهرت فيها ضروبا من البسالة و لكن الظفر لم يكن أكيدا فأرجأ المركيس دي مندوجر الهجوم الأخير إلى اليوم التالي، و اغتنم السمار و أتباعه تلك الليلة للخروج بكثير من النساء اللائي رغبن في ملازمتهم و تسللوا بصمت عبر سبل و وهاد نحو البنيويلات عند فجر يوم 12 فبراير، واستولت العساكر المسيحية على الحصن. و حتى يفند

30- اسمه المسيحي ماركوس و نسبه السمار كان تحت امرته نحو ألف من الموريسكيين متحصنين في ذلك الموقع الذي التجأت اليه كثير من العائلات النبيلة من القرى المجاورة بثرواتها و بالخصوص من النساء و الأطفال، و حيث تم أيضا جمع كمية كبيرة من المؤنة و من البارود و الرصاص.

المركيس سمعة لينه مع المغلوبين التي لاموه عليها في الجيش و في غرناطة فإنه سمح بذبح المسنين و النساء و الأطفال الذين عهد بهم لرأفة الغالب فمكثوا بالحصن. و أدرك السمار المثقل بابنته ذات الثلاث عشرة ربيعا و التي خارت قواها من كثرة عياء الهروب من قبل الفرسان المسيحيين الذين خرجوا لمطاردة الفارين، و قد دافع عن نفسه بشكل بطولي إلى أن جرح في فخذه و تم أسره و حمله إلى غرناطة حيث حكم عليه بالموت بطريقة انتزاع أعضائه بكماشة. و قام المركيس بتوزيع الغنيمة على الجنود و بهدم الحصن و انتهى نصر الوجرات بإخضاع البشارات و لم يبق أمام المركيس سوى القبض على ملك الموريسكيين ابن أمية و عمه الصغير ليستكمل انتصاره. و كان قد علم عن طريق جواسيسه بانسحابهما أثناء الليل نحو بليسانة بدار ابن عبو[31] و هو مسلم ذو مكانة كان يعيش هناك في حماية المركيس، فبعث هذا الأخير القائد غسبار ملدنادو في ستمائة من العسكر لمباغتتهم إلا أن جنديا انفلتت طلقة من بندقيته لما اقترب من الدار أشعرتهم بالخطر، فارتمى الصغير مع مسلمين آخرين من النافذة و انطلقوا نحو الجبال بينما وثب ابن أمية من سرير نومه فوجد البيت محاصرا بالمسيحيين المشتغلين بكسر الباب، فتعجل وسط الجنود في الزحمة و ظل مختبئا خلف عتبة الباب برباطة جأش فأفلت من الموت بواسطة هذه الحيلة.

31- نبيل موريسكي كان اسمه عند تنصيره ديغو لوبث و أصله من مسانة و قد اتخذ اسما مسلما هو عبد الله محمد ابن عبو، و هو ابن عم لابن أمية شارك الى جانبه بفعالية في الثورة الموريسكية و استطاع حشد عشرة آلاف من الموريسكيين هدد بهم غرناطة لكن سكانها لم ينضموا للثورة خوفا من الانتقام و من فقدان الشيء القليل الذي يملكونه. و شارك ابن عبو الى جانب بعض زعماء الثورة في المؤامرة ضد ابن أمية و اتهامه بالخيانة و كان من بينهم ديغو الوزير على صلة بالأتراك فاغتالوه خنقا، فأصبح ابن عبو ملكا على الأندلسيين و استطاع ابقاء الثورة لمدة ثمانية عشر شهرا، الا أن تزايد الضغط القشتالي على الموريسكيين دفعهم الى الانقسام على أنفسهم فرغبت طائفة بقيادة ابن عبو في الاستمرار في الحرب بينما حبذت أخرى كان يتزعمها الحبقي أحد مساعدي ابن عبو التفاوض من أجل الاستسلام و تخلت عن السلاح، فقتل الحبقي لاتهامه بالخيانة. و كانت نهاية ابن عبو على يد بعض رجاله المرتشين من قبل المسيحيين في برجيل حيث حاول المقاومة في شرذمة من أنصاره سنة 1571 و أكدت موته هزيمة الموريسكيين.

و بينما كان المركيس دي مندوجر يهزم الثوار من جهة أرجبة كان المركيس دي لوس بليش و قواده يتوغلون بالجيوش المستقدمة من مرسية من جهة لورقة حتى بلغوا أورية قاطعين بلاد فيلابرش و ضاربين أطنابهم في بلدة طبرنش يوم 13 يناير. و اعتبر تحرك مركيس دي لوس بليش في منطقة لا تخضع لسلطته نوعا من الازدراء الذي أظهره الملك بتحريض من الرئيس دثا تجاه القائد العام لغرناطة الحذر و الشجاع. و قد استمر دي لوس بليش في عملياته فجاب كل من فيليش و أندرش و وانش و هزم الموريسكيين في سائر النواحي حاملا عليهم بالقساوة، و وزع الغنائم بين قواته غير المنضبطة و أحل حافز الكسب محل ما كان يحملوه معهم إلى المرتفعات بعد المعارك من الجثامين و الرقيقة للاستمتاع بثمرة أسلابهم.

و لم يكف المسيحيين غنمانهم و تفوقهم لإخماد الثورة فالإتفاق الجائر الذي منح الأمان للذين ألقوا السلاح عن حسن نية كان يغضب الثوار ويغيظهم، و كانت لحظات عم القلق فيها داخل البرلمان من مدى خطورة الصراع و طول مدته، فتم التفكير في أن يذهب فليبي الثاني بنفسه إلى غرناطة و يترأس الجيش و يخضع بحضوره و سلطته تلك المملكة كما فعل من قبل الملك فرناندو الكاثوليكي، لكن رأي الكاردينال إسبينوسا كان هو الأرجح حيث رأوا أنه يكفي إرسال دون خوان دي أوستريا الأخ غير الشرعي للملك فليبي الثاني إلى غرناطة، و كان ذلك أول ظهور له على مسرح السياسة و هو في سن الثانية و العشرين من عمره، و كلف بمساعدة مجلس حرب شكل في غرناطة بتحديد كل ما يتعلق بتهدئة تلك المملكة على ألا يغير شيئا من ذات نفسه إلا بعد استشارة المجلس. و قد تم تعيينه من قبل الملك يوم 17 مارس و ما كاد ينتشر بين القوات المحاربة في البشارات خبر تعيينه أميرا عليها حتى كسروا مكبح النظام العسكري و أخلوا بواجب الاحترام و التقدير لرؤسائهم، و ارتكبوا في البلاد مسرح

الحرب أكثر المظالم فظاظة إذ نهبوا القرى و قتلوا سكانها و اغتصبوا نساءها و أحدثوا كثيرا من السخط بحيث أن العديد من الموريسكيين الذين لم يشاركوا في الحرب أخذوا السلاح و خرجوا للميدان لأخذ الثأر من كثرة الإهانات و التجأوا من جديد إلى ملكهم ابن أمية و عاهدوه بعدم التخلي عنه هذه المرة و القتال بجانبه حتى الموت فقبل عروضهم وشجعهم على أمل وصول النجدات التي ذهب في طلبها أخوه عبد الله من الباب العالي.

و ارتكبت في يوم 17 مارس جريمة شنيعة في غرناطة أدت إلى إذكاء غضب الموريسكيين و سخطهم و زودتهم بمؤيدين جدد لا تفتر حميتهم، فحدث أن كان نحو من عشرة و مائة مسلم من كبار الأغنياء و ذوي النفوذ الغير مؤهلين للحرب معتقلين بصفة رهائن و من بينهم دون أنطونيو ودون فرنسيسكو دي بلور و هما والد ابن أمية و أخوه، و كان الجميع محبوسين في سجن المحكمة العليا إلا أنهم تعرضوا في سكون الليل إلى هجوم على حين غفلة من طرف حراسهم، و رغم أن هؤلاء الأشقياء بقوا لمدة سبع ساعات يدافعون في يأس و يكافحون بشدة فيرمون قاتليهم بالعصي و الطوب والأثاث و كل ما صادفته أيديهم فإنهم ذبحوا جلهم بشكل وحشي و لم ينج منهم سوى أب و أخ ابن أمية اللذين فصلا في تلك الليلة عن الغرف المخصصة للمذبحة. و قد اشتد حنق الموريسكيين الأكثر طاعة و انقيادا لهذه الأفعال الشائنة فحملوا السلاح و قاتلوا حتى الموت أو الإنتقام من المعتدين، و هو ما وقع في بلور حيث كان السكان أنفسهم هادئين يوما قبل أن يهزموا ثمانمائة رجل من نخبة الجيش الذي كان يتزعمه القائدان ألفارو دي فلورس و أنطونيو دي أفيلا اللذان كان مصيرهما الذبح مع معظم الجنود و كما قتل في طورن قائد عذرى دييغو دي غاسكا، و هكذا صار مشاهير القواد يهلكون على نحو يرثى له وبمقابل

ذلك كان المسيحيون يقتلون بحقد عنيد و بلا رأفة شيوخ و نساء و أطفال المغلوبين.

و كان الجميع ينتظر بقلق حضور دون خوان دي أوستريا مؤملين منه إصلاح كثير من الاضطرابات، و كان الأمير المذكور قد ودع أخاه الملك في أرنخويث يوم 6 أبريل عام 1569 و سار إلى غرناطة يرافقه دون لويس كيخادا الذي رباه في طفولته و كان بمنزلة أبيه حتى اللحظة التي عانقه فيها فليبي الثاني عناق الأخ في بلد الوليد و كاشفه عن سمو منبته. و قد دخل غرناطة يوم 13 أبريل يتقدم صفوف عشرة آلاف رجل و بالتشريفات التي كان فليبي الثاني قد رتبها بنفسه، و قد رأى هناك في منتصف الاستقبال الاحتفالي مشهدا أعده من قبل الرجل القاسي القلب دون بدرو دثا رئيس المحكمة العليا و جسدته أربعمائة من النساء المسيحيات القديمات من أرامل و يتامى ضحايا الثورة و كن مرتديات لباس الحداد وحالات ضفائرهن و باكيات و قد طلبن منه الإنتقام من مسببي نكبتهن. و حضرت في اليوم الموالي عنده لجنة من كبار أغنياء الموريسكيين و ذوي النفوذ متظلمة من إهانات السلطات المسيحية و من السباب و الأذى والمعاملة السيئة التي يقابل بها العسكر غير المنظمين أبناء جلدتهم. فأعطى دون خوان الحماية للذين ظلوا مخلصين و وعد بأن يأخذ بعين الاعتبار الإهانات التي اشتكوا منها لأجل تداركها. و اجتمع المجلس الذي عينه الملك مباشرة و المؤمل في أن يعول عليه في كل شيء و كان يتشكل من دوق دي سسا حفيد القائد العام و من مطران غرناطة و دثا رئيس المحكمة العليا و مركيس دي مندوجر و دون لويس دي ركسينس صاحب أعلى منصب في الرهبانيات العسكرية بليون، و قد هيمنت داخل هذا المجلس آراء متعارضة و كان الصراع بين طريقتين في التعامل: فقد ارتأى المركيس دي مندوجر مواصلة الإخضاع الذي يرغب فيه الموريسكيون أنفسهم

أما الرئيس دثا فاقترح إخراج جميع الموريسكيين من البيازين و من الفحص و حجزهم في قرى قشتالة. و في خضم القلق الناجم عن هذه الأراء المتنافرة و في انتظار قرار الملك فليبي الثاني فإن دون خوان دي أوستريا الذي امتنع عن إعطاء صوته حول إخلاء غرناطة من سكانها، حصر عمله في تعزيز المواقع التي يحتلها المسيحيون حول البشارات وتعيين القواد و ردع فسوق الجنود بقوة و إقرار النظام الأكثر صرامة.

و بقدر ما كان يضيع وقت ثمين في الخلافات بين أعضاء المجلس في غرناطة بقدر ما كان ابن أمية الموجود في قلب البشارات لناحية أجيجر يتهيأ ليس للصمود فحسب و إنما لأخذ المبادرة في الهجوم، فقد تلقى بعض الإمدادات من مسلمي الجزائر بقيادة التركي حسين و سلم القيادة للنقباء الذين هم محل ثقته الكبيرة و أوصاهم إن هم تجنبوا المعارك في الساحات الرحبة فإنهم سيرهقون القوات المسيحية على الدوام بزحوف سريعة و تحرك مستمر. و قد انتشرت شراذمهم في وقت وجيز في كل من ألمرية و مالقة و جبال بني تومي مهددة بغاراتها فحص غرناطة المزهر و هازمة الفرق المسيحية و قاطعة رقاب كل المسيحيين الذين سقطوا في أيديها، فقام قاضي بليش أرفالو دي ثواثو بجمع حشد كبير من أهل منطقة قضائه بمالقة و حاول في شهر مايو الاستيلاء على جبل جرليانة الذي كان الموريسكيون قد استقروا في حصنه الطبيعي إلا أنه أخفق بالتمام بعد خسرانه لكثير من الجنود و القواد البواسل فاضطر إلى الإنسحاب بخزي نحو بليش ليكون شاهدا على انتشار الثورة. و كان مركيس دي لوس بليش حريصا على كسب صيت بعمل شهير في تقدير دون خوان دي أوستريا حيث صد في برجة هجوما شنه ابن أمية على البلدة بعشرة ألف رجل من نخبة الجيش و بمساعدة عمه الصغير و قد سقط في ميدان المعركة ألف و خمسمائة من الموريسكيين و تراجع ابن أمية نحو قضيار ليستعيد

قوته بعد هذه الهزيمة القوية. و كان في أثناء ذلك قد وصل إلى الساحل قادما من إيطاليا الرئيس الأعلى للرهبانيات العسكرية بليون دون لويس دي ركيسنس ليحتل مقعدا في مجلس دون خوان دي أوستريا بغرناطة، و جلب معه أسطولا مكونا من خمس و عشرين سفينة شراعية حربية تحمل لفيفا من المشاة من مرتزقة نابولي القدامى، و بعد قتال عنيف هلك فيه أكثر قواد هذا اللفيف شهرة و شجاعة تمكن من الاستيلاء في يوم 11 يونيو على الجبل الشهير جرليانة الذي كانت قد انكسرت فيه قوات أرفالو دي ثواثو قبل ذلك بنحو شهر، و قام بذبح الحامية و بقي نحو من ثلاثة آلاف شخص من الجنسين أسيرا و استولى على فيء ثمين من الذهب و الفضة و الدرر و الحرير و الحبوب و المواشي.

و كان لابن أمية نفس ثابت لا ينكسر أمام هذه الكوارث فقام بتنظيم حملة نحو المنصورة مهيجا كل الناحية ومستوليا على حصون أورية و قويباش و شرون و يعد هذا الأخير من أهم حصون تلك البلاد و قد استسلم في 11 يوليو بعد قدوم دون إنريكي إنريكي لنجدته من بسطة لكنه حصد هزيمة نكراء. و كان دون خوان دي أوستريا خلال هذه المدة التي سالت فيها كثير من الدماء في أرياف البشارات قلقا و قد وجد نفسه محتجزا في غرناطة و محكوما عليه بالخمول الذي لا يتوافق مع طبعه الشديد و المحارب و ملزما بحضور مناقشات المجلس الذي حمله به أخوه فليبي الثاني و الذي كان يجد فيه كثيرا من المصالح المتقابلة و الميولات المتعارضة.

و وصل في الأخير رد فليبي الثاني على الإجراء الرهيب الذي اقترحه المجلس و الذي عهد بتنفيذه السريع إلى أخيه دون خوان، وأصبحت كل جيوش غرناطة و فصائل قرى الفحص يوم 23 يونيو على أهبة السلاح، و صدر أمر بواسطة مناد بأن يحضر سائر الموريسكيين إلى

خورانياتهم فامتثلت جميع العائلات و قد ملأ قلبها الرعب و الهيبة من الموت، و أعطاهم الرئيس دثا الأمان على حياتهم لكنهم كانوا يعرفون الطبع الصلد لهذا المفتش فلم يهدأ لهم بال بعد أن ظلوا محبوسين في الكنائس طوال الليل بفائض من الحرس عند الأبواب. و في الغد تم نقلهم بين أقوام مسلحين إلى أبهاء المجلس فاعتقدوا أنهم سيقومون بذبحهم لما رأوا قائد إشبيلية ألونسو دي أريانو يتهيأ للذهاب بموريسكيي خورانية سلفادور يتقدمهم صليب فوق عمود رمح مكسو بنسيج حرير أسود، ثم صاروا يخرجون من الملجأ حسب قائمة و وفق شهادة التفتيش ويسلمون إلى قضاء القرى حيث سيكونون محتجزين. و هكذا تم طرد ثلاثة آلاف وخمسمائة موريسكي كانوا يعيشون مسالمين في غرناطة و في وطنهم، وكما قال المؤرخ مارمول: كان المشهد تعسا حين ترى أعداد الرجال من كل الأعمار مطأطئين رؤوسهم و مجمعين أيديهم إلى بعضها و وجوههم غارقة بالدموع و قد علا محياهم الفجع و الحزن و هم يرون أنفسهم يتركون دورهم الجميلة و وطنهم و طبيعتهم و أملاكهم و لاسيما كيف كانوا يعتنون بها بالإضافة إلى كونهم لم يكونوا يدرون مصيرهم. و قد بقيت السبل التي مر منها هؤلاء المطرودون التعساء مغطاة بالجثث إذ هلك بعضهم بالمشقة و التعب و البعض الأخر بالضرب و الإساءة من طرف الذين كلفوا بقيادتهم بعد أن قاموا بنهبهم. و هكذا ظلت أحياء كثيرة في وحشة رهيبة و هدمت الحمامات البديعة و الحدائق الرائعة التي كانت تزين فحص غرناطة و التي أنشأها العرب، و قام الجنود الذين سكنوا البيوت المفرغة من قاطنيها بنهبها و هدمها عن طيب خاطر و بدون أن يفعل رؤساؤهم شيئا و لا نهروهم عنه مخافة تمردهم أو فرارهم من الجندية.

و كان ابن أمية أثناء انشغال دون خوان دي أوستريا و مستشاريه بطرد الشيوخ العاجزين عن حماية أنفسهم و النساء الواهنات من غرناطة

قد غزا كل الحصون و إقليم واد المنصورة حيث تمكن من جمع السلاح والخيول، ثم كتب مزهوا بانتصاره رسالة إلى دون خوان دي أوستريا يتظلم فيها من محكمة التفتيش التي مارست التعذيب في حق والده دون أنطونيو دي بلور و أخيه دون فرنسيسكو، و اعترف بأنه المسؤول الوحيد عن الحرب التي يقوم بها و عرض لأجل افتكاكهما تسليم ثمانين من الأسرى المسيحيين أو أكثر إذا ما طلب منه حتى و إن كانوا في أسر السلطان العثماني و هدد بالقيام بأعمال انتقامية قاسية إذا لم يوقف التعذيب لعائلته. و قد أحدثت تلاوة هذه الرسالة مناقشات كبيرة داخل مجلس دون خوان فاتفق على عدم إجابته و بأن يرد عليه والده دون أنطونيو دي بلور ناصحا إياه بالابتعاد عن سبيله الضال و مبينا له أن خبر تعذيبه كان باطلا.

و شلت الإختلافات داخل المجلس نشاط العمليات الحربية، فاستدعى الملك بحجة المخبرة بكل ما يقع المركيس دي مندوجر إلى الجمعية العامة إلا أنه لم يعد إلى غرناطة، و بإزاحة العقبة الوحيدة من المجلس التي كانت تعارض نظام الرعب تم الإستغناء عن كل اعتبار للاعتدال و أعلن في بلاغ عام يوم 19 أكتوبر من عام 1565 عن الأمر بالمضي في الحرب بقساوة في كل من غرناطة و سائر الأندلس. و في خضم الحرب المضرجة بالدماء و استكمال المسلمين غزواتهم الظافرة بإقليم غرناطة وقع حادث طارئ غير مظهر الثورة، فقد كان ابن أمية يعشق فتاة أرملة فر معها من غرناطة لما ذهب لترأس الثورة مما أثار غيرة أحد الموريسكيين من سكان بسيط أجيجر بشدة و يدعى دييغو الوزير، وكانت هذه المدللة الجميلة خلال تقاسمها عرش البشارات مع ابن أمية على اتصال دائم بقريبها دييغو الوزير حتى صارت أداة طيعة للخيانة فانضم إليها بعض الموريسكيين ممن تعرضوا للإهانة بسبب العقوبات التي

فرضها عليهم ابن أمية لعدم شجاعتهم في المعارك الحربية. و حدث أن باغته في أحضان خليلته الموريسكية الفاتنة كل من ديبغو لوبث ابن عبو و قائد الأتراك حسين الذي حضر من الجزائر مضللا برسالة زعمت أنه اتفق على الغدر بهم، فارتمى عليه كل من ابن عبو و الوزير و خنقاه. و كان ابن أمية قد أظهر رباطة جأش كبيرة و ازدرى قاتليه و صرح بأنه سيموت راضيا لقيامه بالإنتقام من الإهانات التي كالها أعوان الملك فليبي الثاني لعائلته المجيدة. و قد تعرضت داره للنهب و وزعت نساؤه و مات هو في مضجعه المخنث بدون أن يمهل لتقلد السلاح بدافع الإنتقام على يد غيور، و بذلك كانت نهاية من تسمى بملك غرناطة و الأندلس و أسبغ على الثورة صفة العظمة التي لولاه لعدت تمردا للمنفيين أو قطاع الطرق.

و بعد هلاك ابن أمية تم انتخاب ديبغو لوبث ابن عبو ملكا على الموريسكيين و تلقى التأييد من والي الجزائر الذي أرسل له بعض المساعدات، و كانت أولى عملياته الحربية موفقة بحيث حاصر بلدة أرجبة و حصنها و صد بين الساقية و الأنجرون الدوق دي سسا الذي أتى من غرناطة لإغاثة المحاصرين، و استولى على بلدة-حصن قليرة المنيع و هزم الجيوش التي حضرت من أشكر لإغاثة المسيحيين. و لم تكن عصاباته تباغت القوافل و تهزم حراسها المسيحيين فحسب بل إن أفرادها كانوا يتظاهرون بغطرسة في فحص غرناطة ذاته.

و كان دون خوان دي أوستريا الذي تركته أوامر الملك حبيسا ثمانية أشهر في غرناطة قد بين لأخيه كم من فتور في خوض الحرب و كم من خطر في أن تمتد الثورة إلى مملكتي بلنسية و مرسية، و أظهر له اشتياقه للخروج من غرناطة لإدارة العمليات العسكرية بنفسه. و قد وافق فليبي الثاني على رغبات أخيه و أمر بأن يتشكل جيشان يكون أحدهما في جهة المنصورة بإمرة دون خوان دي أوستريا و ثانيهما في اتجاه البشارات تحت

إمرة دوق دي سسا، و قد استقبل دون خوان داخل الجيش بابتهاج كبير من طرف الجنود و أقبل برفقة عدد من الفرسان الذين لم يعبأوا حتى إذذاك، و كانت مهمة الأمير الأولى هي الإستيلاء على وجار و إخلاؤها من الموريسكيين الذين يعترضون طريق القوافل الذاهبة إلى البشارات ويغيرون على الفحص و يصلون حتى أبواب غرناطة. و قام بعد تخلصه من هؤلاء الأعداء و توصله بتعزيزات من بسطة بمحاصرة حصن قليرة بجيش مؤلف من إثني عشر ألف رجل و الذي لم يقدر المركيس دي بليش على إخضاعه ردحا من الزمن، فعمد إلى إحكام المدفعية و وضع الألغام ثم قام بتفجير الصخور مما أزعج البلدة القائمة فوق ربوة بعنف و شن هجوما شاملا و تقدم شبرا شبرا تاركا من ورائه الميدان مزروعا بالجثث. و قد تعرض المغلوبون لمعاملة وحشية بحيث ذبح ألفان و أربعمائة من الموريسكيين و كما تعرض لنفس المصير المفجع نحو أربعمائة من النساء والأطفال، و انتهى في ذلك اليوم و هو العاشر من فبراير سنة 1570 وجود بلدة قليرة التي أمر دون خوان دي أوستريا بمحقها تماما و بعثرة تربتها بالملح لأنه كان في حاجة للثأر للخسارات الكبرى التي تكبدها جيشه خلال الحصار.

و كان دون خوان المذكور غير سعيد من الإستطلاع الذي قام به في حصن شرون يوم 19 من نفس الشهر بحيث كان على وشك الهلاك بسبب رصاصة أصابت خوذته المتينة فوقته من موت محقق، و شاهد أيضا عددا من القواد الشجعان يلقون حتفهم هناك و من جملتهم دون لويس كيخادا الصديق القديم لكارلوس الخامس و أمين سره و الرجل الذي كان قد اتخذه أبا لعدة سنوات و أحبه يسقط قتيلا برصاصة صدرت من قربينة أصابت كتفه.

و عاد بعد أن عزز قواته للإغارة على شرون يوم 5 مارس، و لم ينتظره الموريسكيون الذين قاموا بإحراق البلدة و الحصن و صعدوا إلى الجبال في

أعداد سبعة آلاف رجل، فاتجه لمحاربة تجولة إلا أن الموريسكيين كانوا قد خرجوا منها ليلا فلم يجد المسيحيون سوى أربعمائة من النساء و الأطفال و فيء ثمين كان محفوظا لديهم هناك، فدمر دون خوان تلك البلدة وقام جيشه بمباغتة بعض الحصون فاستولى على كل من برشانة و قنتورية وتاهلي و حصون أخرى كان الموريسكيون قد شرعوا في إخلائها. و كان فرناندو الحبقي الذي يتزعم القوات الموريسكية في تلك الناحية قد اتصل بدون خوان دي أوستريا بهدف الإعداد لخضوع الموريسكيين و العمل على قبول ابن عبو بذلك، و قد عرض الحبقي التخلي للمسيحيين عن حصون واد المنصورة و إقناع الموريسيكيين باستحالة الدفاع عنها فقام بالانسحاب إلى البشارات لأجل تيسير أفضل لعملية الخضوع فيما بعد.

و قام دون خوان بنشر بلاغ ينعم فيه بالحياة و يتعهد بإنصاف أولئك الذين يثبتون الانتهاكات و الضيوم التي دفعت بهم إلى الثورة شريطة أن يضعوا أنفسهم تحت سلطة جلالته أو دون خوان دي أوستريا، و عرض منح مكافأة للذين تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة عشر و الخمسين عاما ويحضرون داخل المهلة المذكورة مزودين بقربينة و بقذافة يتأتى بهما تحرير إثنين من أقاربهم، و تم تحديد المكانين المخصصين لعملية الخضوع و هما ميدان دون خوان دي أوستريا أو ميدان دوق دي سسا، و أما الذين رفضوا الخضوع داخل الأجل المذكور فحكم عليهم بطائلة الموت التي يجب أن تنزل بهم بلا مغفرة. و كلف المجاز قسطيليو المتضلع في العربية بشرح بعض الكتابات ظهر أنها لأحد الفقهاء يقنع فيها الثوار بضرورة الخضوع للملك لتجنيب كثير من المصائب كالتي حلت بالبلاد بسبب تهور ابن عبو و أتباعه.

و كان الدوق دي سسا قد تمكن خلال ذلك من نشر البلبلة في صفوف الثوار بتحقيق انتصارات و استطاع بحصافته إخضاع الكثير من

الموريسكيين الطيبين، فسيطر في غضون شهر مارس على حصن بليش و بني عبد الله و لنتشي و قام بتحصين كل من قمبطا و مارو و نريشة وأخمد الفتن في ساحل المنكب و عمل على طرد و ترحيل أهالي البرج وقمارش و حصن أقوت و بني عمروشة نحو داخل إسبانيا. وقد صادف هذه الأحداث صدور قرار الطرد يوم 19 مارس الذي تم في حق جميع المسلمين المسالمين بإخراجهم من مملكة غرناطة و حجزهم في قرى لامنتشا و كلا القشتالتين بتعويضهم عن قيمة المنقولات و المواشي التي يملكونها مع فرض العقوبة الشاقة على كل الموريسكيين الذين ظلوا مختفين في المدينة و في القرى و الضيعات فكانت هذه أول محاولة تمت لطردهم.

و اجتمع كل من دون خوان دي أوستريا و دوق دي سسا في شهر أبريل في البذول ، و كان هذا الأخير بالرغم من انتصاراته قد بقي في نقص عددي نظرا لفرار الجند من الجيش، فتابعا بنشاط معا الحرب بدون التخلي عن المباحثات لأجل إخضاع الموريسكيين و رتبا الأمر لكي يكتب دون ألونسو دي غرناطة بنيغاس الى ابن عبو مباشرة ليبين له الشروط المواتية التي يعرضانها عليه بقصد استسلامه، لكن هذا الأخير رد معضدا عدالة الثورة و أحالهما على الحبقي ليلتقيا به و كان قد منحه التفويض في ذلك الشأن. و اجتمع الحبقي بمأموري دون خوان دي أوستريا في الفندون دي أندرش يوم 13 مايو 1570 و طرح عليهم شروط الاستسلام فبعثوها إلى دون خوان، و بعد توصلهم بمشورته اتفق في الرد بأن يحضر الحبقي قبل كل شيء توكيلات ابن عبو له بشأن خضوع الجميع و بأن يقدموا طلبا يلتمسون فيه ما يستوجب منحهم إياه ليس غير، و لتفادي الشكوك فإنه تم تحرير مذكرة الطلب ثمة بالذات بواسطة كاتب دون خوان، و وعد الحبقي بالعودة قبل انصرام ثمانية أيام حاملا التفويض المطلق من لدن ابن عبو. و قد عاد بالفعل في 19 مايو إلى الفندون دي أندرش و أظهر

التوكيلات التي سلمت له و تم الإتفاق على الأجال التي ينبغي أن يحصل فيها الاستسلام، و قد جرى ذلك بشكل رسمي في البذول يوم 22 مايو حينما وصل الحبقي و ارتمى على قدمي دون خوان دي أوستريا الذي كان مقيما في فسطاطه و محاطا بمستشاريه و قواده، فسلمه سيفه وراية باسم ابن عبو و جميع حلفائه الذين حمل توكيلاتهم، فأعاد له دون خوان سيفه وأعطاه وعدا قاطعا بألا يتعرض أحد للمضايقة أو النهب و لا للمتابعة و بأن الجميع سيترك للعيش مع نسائه و ولدانه في المملكة ماعدا في البشارات، و بعد الإنتهاء من الإحتفال الرسمي بالإتفاق ذهب الحبقي إلى البشارات بقصد الإخطار بما وقع الإحتفال به. و في يوم 25 مايو عين دون خوان بموافقة ابن عبو و سائر القواد و العساكر الموريسكيين المفوضين الذين استوجب عليهم استقبال الموريسكيين الخاضعين إلا أن ابن عبو استاء من عدم حصول شخصه على فوائد كبيرة من الاتفاق أو ندم على اضطراره للتخلي عن منصب الملك فرفض تنفيذ اتفاقية الإستسلام بحجة أن الحبقي لم يراع مصالح أمته و لا حافظ عليها و أنه عديم الإخلاص، فاغتاظ هذا الأخير و عرض على دون خوان أن يعمل بنفسه على الإيفاء بالإتفاق أو يأتي بابن عبو مقيدا إلى حضرته. و ذهب عاقدا العزم على تنفيذ قصده مرفوقا ببعض القوم و باحثا عن الذي لم يعد عاهله، إلا أن ابن عبو استخبر بذلك فأرسل حرسه يعترضون سبيله فهزموا حاميته و أمسكوه و قام ابن عبو بخنقه في سرية و طمره في مزبلة بدون أن يعلم أحد بموته لمدة فاقت الثلاثين يوما و لم يزل ابن عبو يحاول خداع دون خوان دي أوستريا بمواعدته تحقيق استسلامه حتى بعث له هذا الأخير رسولا في 30 يوليو لكي يتفق معه مباشرة، لكنه صرح أمامه بخيلاء أنه انتخب ملكا فحتى إذا ما بقي لوحده في البشارات فلن يذعن أبدا، و بأنه يملك مغارة مزودة بالماء و المؤنة لوقت الشدة و لمدة ست سنوات

و لن يعدمه قارب لما يحين الوقت يستطيع الإجتياز به نحو المغرب.

و تشكلت من جديد هيئتان للجيش تمكنت الأولى بقيادة ركيسنس الرئيس الأكبر للرهبانية العسكرية من دخول البشارات بينما قاد الثانية دون خوان و دوق دي سسا من ناحية وادي آش و كان عليهم أن يلتقوا جميعا في منتصف السلسلة الجبلية، و قد قام الفارس الأكبر ركيسنس في شهر سبتمبر بمطاردة عامة في البشارات مستعملا القسوة الشديدة فأتلف الأراضي المزروعة و ذبح كل من لقيه من الرجال و سبى النساء و الأطفال و وزعهم بين قواده و جنوده، و كما قام بالبحث عن الموريسكيين داخل المغارات حيث كانوا يختبئون في الأماكن الوعرة فأرغمهم على الخروج منها إما بقوة السلاح و إما بإضرام النيران عند مخارجها لكويهم بالنار أو خنقهم بالدخان، فتم بذلك أسر الألاف من الموريسكيات و الشيوخ و الأطفال في هذه الغارات و بيعهم كرقيق و بثمن بخس و جد منخفض لكونهم كثارا.

و بعث الملك في يوم 28 أكتوبر دون خوان دي أوستريا و دون بدرو دثا رئيس غرناطة للتعجيل بإخراج جميع الموريسكيين من مملكة غرناطة و حجز المسالمين منهم مثلما الخاضعين حديثا في قشتالة و الأندلس. وقام دون خوان باحتلال كل ممرات السلسلة و تم في الأول من نوفمبر طرد الموريسكيين سواء كانوا ثوارا أم لا من سائر القرى و كل النواحي بمملكة غرناطة و كما تم تقسيمهم إلى مجموعات ضمت كل مجموعة نحو من ألف و خمسمائة نفس، فسيق كل من أهل مدينة غرناطة و إقليمها وسلسلة بني تومي و حفرة مالقة و المنطقة الجبلية من رندة إلى قرطبة ووزعوا فيما بعد على اشترمدورا و جليقية، و حمل أهل بسطة و وشقر و وادي آش و المنصورة إلى لامنتشا و قشتالة القديمة، و أما أهل المرية وإقليمها فأبحروا نحو مملكة إشبيلية، و لم يوجه أحد نحو مملكة مرسية

و لا إلى مقربة من بلنسية لتجنب خطر المباحثة و الإتصال مع موريسكيي تلك الأراضي. و هكذا أصبحت مملكة غرناطة في يوم واحد خالية من سكانها الموريسكيين بعد أن كلف تذليلهم سنتين و حملتين داميتين.

و دخل كل من دون خوان دي أوستريا و الفارس الأكبر و دوق دي سسا منتصرين إلى غرناطة و سرحوا جيوش المدن، و ذهب دون خوان إلى مدريد في يوم 30 نوفمبر بعد أن ترك في يد الدوق دي أركش مهمة الإنهاء مع بقايا عصابات الموريسكيين الذين يتجولون بالمنطقة الجبلية لرندة و البشارات و من بينهم فرقة مكونة من أربعمائة رجل لم تزل تأتمر بأوامر ابن عبو الذي عرضت مكافأة لمن يقتله أو يأسره. و كان قد تآمر على قتله أقرباء ابن أمية الذين كانوا يرومون أخذ الثأر لمقتله غدرا فحصل أن قام إثنان من أخلص جواسيسه باغتياله في مغارة بين برجيل و مشانة دي بمبرون بإصابته بضربة بردف قربينة في رأسه فانتهى بذلك آخر أموي !، و قام قاتلوه بحشو جثته بالملح و جبر عظامه بالجبيرة حتى تستطيع تحمل امتطاء البغلة فدخلوا به غرناطة كأنه فارس مكسوا بأفخم الثياب، و تم عرض الجثة على دوق دي أركش في قصر المحكمة العليا، ثم سحب جسد ملك الجبل السابق و تقطيعه أطرافا فوضع رأسه في قفص من حديد و علق بباب (المحلجة) راسترو المؤدية نحو البشارات و كتب عليه: «هذا هو رأس الخائن ابن عبو فلا أحد يزيحه تحت طائلة الموت».

و قد ظلت مملكة غرناطة خالية من سكانها و اضطرت السلطات المسيحية إلى حشد المعمرين من جليقية و أشتورياش و جبال ليون وبرغش، و قامت بجلب المواشي و أدوات الحرث بغية توزيعها على السكان الجدد إلا أن هؤلاء لم يصلحوا لهذا الغرض لأن الموريسكيين كانوا قد حملوا معهم سر مهاراتهم، فبقيت البلاد مخربة لزمن طويل نتيجة التدمير الذي قام به العسكر. و لم يجد المعمرون الجدد الذين سلمت

لهم الأراضي مقابل إتاوة مخفضة إيرادات للعيش فالذين قبلوا بترك بلدهم القديم كان البعض منهم إما غير صالح للفلاحة أو كان يأنس نمطا خليعا للعيش و يحتقر التمسك بالعمل ، فلم يوفوا بالشروط التي قبلوا بمقتضاها الأنصبة أو حصص الأرض التي قدمت لهم و فروا أو تحولوا إلى لصوص أو قطاع الطرق. و هكذا لم يتمكن من جمع سوى إثنتي عشرة ألف وخمسمائة و إثنين و أربعين عائلة فقط تم بها تعمير مائتين و ستين موضعا فضل من الأربعمائة الذين كانوا في عهد المسلمين، فبقيت البلاد مفقرة و خالية من السكان و معتادة على الفجور، و إلى اليوم و بعد مرور أكثر من ثلاثة قرون مازالت غرناطة لم تستطع النهوض من وهن القوى الذي تركها فيه طرد الموريسكيين.

10

محاربة الموريسكيين و طردهم من بلنسية

اعتلى فليبي الثالث العرش و عمره لم يتعد الواحد و العشرين عاما، و لم يجعله عدم خبرته و ضعف مزاجه مناسبا لاحتواء الإنحطاط الذي بدأ يسري في جسم الملكية الإسبانية منذ السنوات الأخيرة من حكم والده، هذه الملكية التي منحت القوانين و ملأت بالذعر سائر القوى الأوربية، فهو لم يرث الطموح عن والده و لكنه ورث الغيرة الدينية العمياء و التعصب الشديد.

و كان دون فرنسيسكو دي روخاس ساندوفال مركيس دانية وسائس فليبي الثالث حين كان أميرا لأشتورياش قد احتفظ بنفوذه على هذا الأمير لما أصبح ملكا، فصارهو دوق دي ليرما و وزيرا أولا للملك و قد حكم هذه الملكية الشاسعة حسب إرادته فكان هو العاهل الحقيقي لإسبانيا بالرغم من أنه شخص قليل الكفاءة في الحكم مثل الملك. و لم يسع دوق دي ليرما إلى ضم الموريسكيين للمملكة في الوقت الذي كانت تتعرض فيه لهجومات عنيفة من طرف ثلاث ممالك مجتمعة: فرنسا هنري الرابع وإنكلترا الملكة إليزابث و موريسيو دي نساو[32].

و قد سعى الدوق إلى كسب الصلح مع كل من فرنسا و إنكلترا والأقاليم المتحدة و لو بقليل من الكرامة بموجب معاهدات فروينكس

32- أمير أورانج قاد سنة 1584 قوات الأقاليم المتحدة التي كانت تحارب الوجود الاسباني بالأراضي المنخفضة و تمكن من فتح عدد من المدن ثم أمضى اتفاقية الهدنة عام 1609 مع اسبانيا لمدة اثنتي عشرة سنة.

عام 1578 و لندن عام 1604 ثم هدنة إثني عشر عاما المتفق عليها في أبريل 1609. و كانت تلك الحروب قد أنهكت كثيرا ازدهار إسبانيا وبالخصوص حرب الأراضي المنخفضة التي دامت أربعين عاما و كلفت إسبانيا أكثر من ألفي مليون ريال و أبادت نخبة جيوشها و أفنت تجارتها و مواردها و لاشت قوتها البحرية، إلا أنه مع نهاية هذه الحرب سيتلقى ازدهار الأمة الإسبانية ضربة جد موجعة لعدم الأهلية و لطمع الوزير الأول دوق دي ليرما.

و كان يشد فليبي الثالث اعتقاد راسخ في الخرافة و ميل للتقوى وبغض شديد للموريسكيين، و كان وزيره الأول دوق دي ليرما قد عامل الموريسكيين بالشدة و الاحتراس لما كان نائبا للملك في بلنسية في عهد والده. و لما كانت الشواطئ البلنسية تتعرض باستمرار لغارات القراصنة البربريين فقد اتهم الموريسكيون الإسبانيون بالتخابر السري معهم وبتحريضهم على الإغارة و تشجيعهم عليها، و وصفهم الإكليروس بالمتآمرين على سلامة الدولة. و حدث أن فليبي الثالث لما ذهب إلى بلنسية للاحتفال بعقد قرانه بمرغريتا دي أوستريا ابنة الأرشيدوق كارلوس من زوجته ماريا دي بفييرا كتب من هناك للأساقفة رسالة رعائية يدعوهم إلى الانكباب على تحسين حالة الموريسكيين، و عمل على نشر مرسوم للصفح مانحا العفو العام لكل من ارتد عن ضلاله و التمس المغفرة لذنوبه.

و أعلن المفتش العام في 22 يونيو من عام 1599 لجميع الموريسكيين في المملكة بأن البابا منحهم بدوره مرسوما للصفح بمهلة عام. و قام مطران بلنسية و التابعون لسلطته بتعيين مبشرين غرباء في محكمة التفتيش و الذين عهد إليهم بمهام نشر مرسوم الصفح و إعلان العيد الخمسيني الدنيوي لأسقفيته، و كما كلف الخاضعين لإمرته بإذاعة كلمات الرأفة

التي صدرت عن البابا في حق الموريسكيين الذين عليهم أن يعلموا أسيادهم بالمهلة الأخيرة و أنهم إذا لم يستجيبوا مثلما يجب فإن الملك سيتخذ في حقهم إجراءات أخرى للتغلب على عنادهم.

لكن وعد المطران الموقر ذهب سدى و وعظ المبشرين كان عبثا و كما كان بلا جدوى قبض المفتشين للموريسكيين المعروفين باسم الفقهاء وإيداعهم السجون رغبة في إقناعهم بهذه الطريقة بالدين. و كان البطريرك الرؤوف لشدة حماسه يخصص مداخيله للزيادة في موارد مدرسة الموريسكيين و أنفق أربعين ألف ليرة لتشييد مدرسة أخرى للنساء، إلا أنه لقلة صبره الديني لم ينتظر حتى تنبت بذور الخير ففي نفس العام الذي أنشأ تلك المؤسسة و في نفس الشهر تقريبا تقررت المطالبة بالطرد. فقد رفع المطران مذكرة إلى الملك في عام 1602 يطالبه فيها بطرد الجنس المرتد و يوضح بأن سائر الموريسكيين كانوا مارقين و عنيدين و فاسدين، و بأنهم يتراسلون مع بعضهم و الكل مع مسلمي الجزائر و القراصنة البربريين والأتراك، و بأن الأساقفة عندما سمحوا بتنصير أبنائهم كان هم تفكيرهم هو أنهم سيعودون مرتدين لكونهم ينتهكون في سائر الأيام حرمة الأسرار الكنسية و يزعجون عبادة المسيحيين القدامى، و قد تختفي من المملكة كمية من الأشخاص المسيحيين و لنتصور بأن هؤلاء قتلوا و بأن النساء و الأطفال اختطفوا من قبل القراصنة و حملوا إلى بر إفريقيا للزيادة في أعداد الكفار. ثم إن الدسائس لا زالت قائمة و أن إسبانيا أصبحت على حافة الانهيار كما حدث في عهد الملك دون لذريق، و الإخفاقات التي كابدتها المملكة السالفة كفقدان الأسطول الذي لا يقهر و فشل مغامرة الجزائر كانت بمثابة دروس أنذر الله بها ملوك إسبانيا لكي يستعملوا القوة و لكن ليس خارج إسبانيا بل داخلها حيث يوجد أعداؤها الرئيسيون. وقد أجاب كل من الملك و دوق دي ليرما و معرف الملك الراهب غسبار

دي قرطبة المطران مادحين غيرته على الدين إلا أنهم لم يتخذوا أي تدبير.

و إذا كان فليبي الثالث يأمل في حل المسألة الدينية ذات يوم فإنه لم يكن يبالي بالمسألة السياسية، و عدم المبالاة هذه جعلته يترك الحكم مهملا تماما في يد دوق دي ليرما الذي انشغل في المفاوضات لشراء الهدنة و الراحة لإسبانيا التي كانت في الحرب مع ثلاث أمم قوية في نفس الوقت، و من جانب آخر لم يكن يفزعه الخوف من قيام ثورة الموريسكيين و هو الواقع الذي كان المطران ريفيرا يهدد به باستمرار لأن نسبة المسيحيين مع الموريسكيين لم تكن لتطمئنه بالكامل، فقد أظهر تعداد عام 1599 بمملكة بلنسية أنها كانت تضم ثمانية و عشرين ألفا و واحد و سبعين عائلة موريسكية مقابل ثلاثة و سبعين ألفا وسبعمائة و عشرين عائلة مسيحية. و وجه المطران الذي لا يكل ساعده مذكرة ثانية أكثر شدة من الأولى أعادت الملك إلى التمعن فيما هو لزام عليه من استئصال شأفة الكفار وجعلته يرى تصرف كل من كارلوس الخامس و فليبي الثاني اللذين حاولا هدي أناس كان عليهما إبادتهم أو طردهم كوسيلة وحيدة لتطهير المملكة من عنصرها الفاسد. و لما كانت فكرة إبادة و مذبحة مليون من الرجال ترعب الأسقف المقتنع أكثر بضرورة التخلص من الشعب الموريسكي فإنه اقترح الطرد كحد وسط مشيرا بأن يشرع فيه بقشتالة و الأندلس، على أن يباع الرجال و يوجه الشباب إلى الأوراش أو للعمل في المناجم مع الاحتفاظ بالأطفال دون سن السابعة، و أن يتم في أراغون و مملكة بلنسية القضاء على السكان الموريسكيين بإجراءات مماثلة و لكن تدريجيا لأن الموريسكيين في تلك البلاد يعيشون منعزلين و لا يعرضون عقيدة المسيحيين القدامى للخطر، و لأنهم أرباب الفلاحة بالتمام و كل أصناف الصناعة و المهارات فإذا تم طردهم بالمرة فسيؤدي إلى حدوث غلاء كبير و إلى البؤس و المسغبة

بسبب الاختفاء الفجائي للتجارة وللمواد الضرورية للعيش. وبقدر ما كان الموريسكيون في قشتالة مبعثرين في الأقاليم و مختلطين مع المسيحيين و يتكلمون القشتالية ويملكون ذكاء كبيرا فإنهم كانوا أعداء مخيفين أكثر للعقيدة و للدولة بينما كان الآخرون نافعين لزراعة الأراضي و لاستغلال المصانع.

و قدم المطران اقتصاد الموريسكيين و كدهم كاتهام خطير فاعتبر أن القناعة في المعاملة و الزهد في المأكل و المشرب و عدم وجود مظاهر الترف في مساكنهم و لا في ألبستهم، و الرغبة الشديدة في جمع المال بالرغم من ثقل الضرائب التي يؤدونها ليحصلوا على وضعية أفضل من التي يوجد فيها كثير من المسيحيين القدامى، و السرعة التي يتكاثرون بها لنبذ العزوبة بينهم و التزوج مبكرا و عدم مساهمتهم في الخدمة العسكرية التي كانوا معفين منها فلم يفقدوا أناسا في الحروب المكلفة التي تحملتها إسبانيا آنذاك، و عدم هجرتهم للبحث عن الثروات في العالم الجديد، كل ذلك ساهم في تزايد أعدادهم بشكل هائل. لقد كان السكان الموريسكيون في بلنسية فعلا في صعود بنسبة مدهشة لأنه في أوائل القرن السابع عشر وبطلب من برلمان المملكة تم تعليق النتائج المكونة للتعدادات حتى لا يتم الكشف عن القوة البشرية للموريسكيين.

و ليس تعصب الإكليروس وحده من اتهم الموريسكيين و لامهم عن خصالهم الجيدة و فضائلهم التي عملوا على نشرها وسط المسيحيين القدامى بل نجد أحد أهم نوابغ عصره و هو ميغل دي سرفانطس سافدرا الشهير في محاورته لكلاب مودس بأسلوبه الظريف عند وصفه للموريسكيين يصورهم بهذه الطريقة المسخرة:

«كان كل قصدهم هو سك النقود و الاحتفاظ بالمسكوكات، و لأجل الحصول على المال يشتغلون و لا يأكلون: يسقط الريال تحت رحمتهم

و لما لم يكن سهلا فإنهم يحكمون عليه بالسجن المؤبد و العتمة الأبدية إنهم يربحون دائما بحيث تصل إليهم أكبر كمية من النقود الموجودة في إسبانيا فيكدسونها، إنهم جذامه و عثته و عقعقه و ابن عرسه، يجمعون الكل و يخبئون الكل و يبتلعون الكل: اعتبر أنهم كثيرون و في كل يوم يربحون و يخبئون قليلا أو كثيرا، و بأن حمى بطيئة كالحمى الحصبية أجهزت على الحياة فكيف سينمون؟ ستزداد المخابئ و ستتكاثر إلى ما لا نهاية كما تظهره التجربة، لا توجد بينهم العفة و لا يلجون الرهبانية ذكورا و لا إناثا و يتزوجون جميعا و يتكاثرون لأن العيش بقناعة يزيد من أسباب التناسل، و لا تستنفدهم الحرب و لا أداء الغرامات الذي يجعلهم يشتغلون أكثر من اللازم. اسلبونا مشيا على الأقدام رويدا ! إنهم بغلات مزارعنا التي يبيعونا إياها ثانية يصيرون أغنياء، ليس لهم خدم لأنهم جميعا يخدمون أنفسهم و لا ينفقون على أولادهم في التعليم لأن علمهم هو سلبنا». ! فانظر كيف استسلم هذا المؤلف الذي خلد الكيخوطي لهيمنة الانزعاجات المبتذلة لعهده ! .

و كان النبلاء و الأسياد البلنسيون قد ردوا على المذكرة الحماسية للمطران ريفيرا لأنهم يعنيهم بقاء الموريسكيين الذين يخدمونهم بكثير من المنافع، فكانوا بصفتهم معمرين للأراضي يدعمون ثروة هؤلاء بما كانوا يسددونه لهم من جبايات و أموال كواجبات الإيجار، و قد أنكر الأشراف مؤامرات الموريسكيين التي حسبوها مختلقة من طرف الرهبان و طالبوهم بالبراهين القانونية لاتهاماتهم، و اتهموا بدورهم الإكليروس بالتهاون في تعليم الموريسكيين و الإختلاق البغيض لترسيخ التفاوت بين المسيحيين القدامى و المسيحيين الجدد.

و قدمت للبرلمان مذكرتان أخريتان سنة 1604 إلا أنه لا البرلمان و لا الملك اتخذ أي تدبير و بقي الأمر في حيرة. و حين أنكر النبلاء البلنسيون

بشكل جازم المؤامرات التي نسبت إلى أتباعهم و خرجوا ضامنين لولائهم كان الموريسكيون يجرون اتصالا مع الفرنسيين و استقبلوا في أرضهم بعض المبعوثين من الوزير الفرنسي دوق دو لا فرس و اتفقوا على قيام الثورة يوم الخميس المقدس، على أن تحضر أربع بواخر في تلك الليلة و تصل إلى مرفأ بلنسية و تقوم بإنزال الجنود المتسترين الذين سيتسلقون السور و تبدأ الحركة مع الفجر. و قد اكتشفت هذه المؤامرة بواسطة موريسكي كان قد شفي من مرض خطير و تنصر على يد الراهب الدومينيكي خايمي بليدا أحد الرجال الذين لا يكلون في اضطهاد الموريسكيين، فأفشى المؤامرة للملك و انكشفت و اعتقل زعماؤها و شركاؤهم و تم شنقهم و كانوا هم باسكوال دي سانطيسطبان و مرتين دي إيريوندو و فرناندو دي شرين وبدرو دي سان خوليان و ميغل ألمين و بدرو كرطس. و لم يعد ممكنا الشك في تآمر الموريسكيين فاكتشاف هذه المؤامرة جاء مقرونا مع ما حدث قبل ذلك بقليل في إشبيلية لما عثر خادم الملك على مائتي برميل من البارود مخفية و كثير من الأسلحة مخبأة في أحد الأحياء كانت لغرض ثورة الموريسكيين بالأندلس في ائتلاف مع سائر إخوانهم في إسبانيا و شمال إفريقيا مما أظهر الخطر و أثار ضجة الإكليروس لكي يتخذ الملك إجراء الإبادة ضد العرق الموريسكي.

و لم يكن جميع الأساقفة يفكرون بهذه الطريقة و لا كان لديهم الحماس الطائش كالذي عند مطران بلنسية و مطران طليطلة دون برناردو دي ساندوفال إي روخاس عم دوق دي ليرما، و أما أسقف سغوربي دون فيليسيانو فيكيروا بروحه الإنجيلية و بتسامحه المسيحي الحقيقي فبدل أن ينصح باتخاذ تدابير شديدة و قاسية يدري ما سيكون لها من عواقب وخيمة على التجارة و الفلاحة فإنه توسل إلى البابا بولس الخامس في أن يأمر أساقفة و مطارنة المملكة بالإجتماع لأجل مناقشة المسألة الجد

خطيرة. و منح البابا المذكور رسالة بابوية لكي يجتمع رجال الدين بقصد المباحثة في هذه القضية الهامة و لم يرد سماع الكلام عن الطرد و الاقتصار على التوبة لا غير باعتباره الأب المشترك للمؤمنين.

و بعد اتفاق عام بين البابا و الملك فإنهما كتبا إلى مطران بلنسية يأمرانه بأن يستدعي إلى مجمع ديني أساقفة كل من أوريولة و سغوربي وطرطوشة و يلتئموا مع الإكليروسيين الذين يظنونهم مفيدين ليتم مناقشة الوسائل المقسطة و المناسبة لأجل هداية الموريسكيين و المسيحيين الجدد. و لما كانت المواضيع المطروحة للنقاش في هذا المجمع تمس مصالح الدولة و حقوق محكمة التفتيش فإن الملك أمر بحضوره كلا من المفتش العام الحبر برطولو سانشث و المركيس دي قرشانة القائد العام و نائب الملك في بلنسية، علاوة على تسعة من علماء اللاهوت كمستشارين منهم ستة قانونيون و ثلاثة من القساوسة الغير منتمين للرهبانية، و عين سكرتيرا للمجمع الإخباري و مؤرخ بلنسية غسبار إسكلانو الذي استخرجنا من مؤلفه عشاريات كثيرا من الأخبار. و اتخذ المجمع حينئذ اسم المجلس و بدأ جلساته في قصر نائب الملك يوم 22 نوفمبر عام 1606، و كانت المسائل الخطيرة و المهمة التي خضعت لمداولته كالتالي:

1 - هل كان المسيحيون الجدد ملحدين أو مرتدين.

2 - هل يمكن تعميد أبنائهم ثم تركهم تحت سلطة آبائهم.

3 - هل يجب إلزام الموريسكيين بالإعتراف للقسيسين و تلقي الأسرار الكنسية أم ذرهم في حريتهم.

4 - هل يسمح لهم بالتصريح بشكوكهم في موضوع العقيدة بدون أن تستوجب العقوبة على الذين يسمعونهم و لا يقومون بواجب الإبلاغ عنهم.

و قد تمت نقاشات طويلة و ساخنة حول كل واحدة من هذه النقط ودامت جلسات المجلس ثلاثة شهور حتى مارس 1607. و تم إرسال جميع المذكرات و الإجابات المسجلة في محاضر مجلس بلنسية إلى المجلس الأعلى الموجود بمدريد بقصد المراجعة، و قد انقسمت آراء المجلس حول النقط الثلاث الأولى بيد أنه اتفق بالإجماع في النقطة الأخيرة التي تعتبر أنه من غير المفيد مجادلة الموريسكيين لأن القرءان يمنعهم من الجدال الديني و لأنهم لن يتجرأوا أبدا على الاعتراف بكفرهم خوفا من محكمة التفتيش.

و كان المطران قد فصل بنفسه في المسائل التي لم يقدم علماء اللاهوت على حلها فأعلن بأن الموريسكيين كانوا مرتدين و بأنه لا ينبغي السماح لهم بتعميد أبنائهم و لا يمكن استقبالهم في القربان المقدس. و بلغ الأمر إذذاك إلى حد معارضة الراهب الدومينيكي خايمي دي بليدا لهذا الرأي معتبرا أنه إن لم يكن اعتراف الموريسكيين حقيقيا فإن المعرفين لم يكونوا ملزمين بالاحتفاظ بأسرارهم، ! فأية طريقة هذه لحث المسيحيين الجدد للتردد على القرابين المقدسة !!!.. و انتهى ملخص قرارات مجلس بلنسية بهذه العبارة : يجب إعادة التعميد للموريسكيين و الحصول على مرسوم الصفح للمرة الأخيرة و تعليمهم، و إذا لم يطلبوا تنصيرهم من جديد فيطردون من المملكة.

إن الجلسات الطويلة للمجلس و السر الذي لا يحفظ جيدا دائما داخل الهيئات الوافرة أقلق الموريسكيين و أنذرهم بالخطر لذا شرعوا في استئناف اتصالاتهم مع فرنسا و الأراضي المنخفضة، فتم اكتشاف بعض المؤامرات أو على الأقل التظاهر باكتشافها. و كان الراهب بليدا الذي نعت نفسه بافتخار في مؤلفه «الدفاع عن العقيدة و طرد الموريسكيين» بأنه سوط الموريسكيين و الذي كان يتحرك باستمرار لمطاردتهم متنقلا

من إسبانيا إلى روما حيث قاموا بطرده قد توجه بتشهيراته نحو دوق دي ليرما. و قد عمل هذا الوزير الذي كلفت عدم أهليته إسبانيا باهظا على جعل الملك يعتقد بأن مؤامرة واسعة ستمتد في سائر المملكة مسندة إلى الموريسكيين مما أفزع حماسه الواهن و الجبان و أقنعه بأن الطرد الكلي للموريسكيين من أمصارهم بات أمرا لابد منه، فكان رد فعل الملك فليبي الثالث المتعود على الخضوع أمام إرادة وزيره المفضل دوق دي ليرما لما طرح عليه ذلك التدبير الخطير الذي سيميز بكيفية أقل نفعا كل مدة ملكه أن قال له «افعلوه أنتم أيها الدوق» (6 يونيو 1600) و هكذا تم تبني النصيحة الأكثر جرأة و همجية التي يذكرها تاريخ سائر القرون السالفة.

و قد صادف اتخاذ هذا القرار الجريء و الجسور حصول هدنة إثني عشر عاما المبرمة مع الولايات المتحدة الفلامانية، بحيث أن جميع القوات الإسبانية ظلت جاهزة لتنفيذ الضربة الجريئة و الرهيبة التي اقترحها الدوق دي ليرما. و تم توقيع مرسوم طرد الموريسكيين من بلنسية في شقوبية يوم 4 يوليو من نفس العام، و اتخذ دوق دي ليرما جميع الاحتياطات اللازمة قبل تنفيذه لضمان نجاح تلك الضربة، و تأهب الجيش الشعبي الدائم في كل من بلنسية و قشتالة و ليون للقتال، و أعطيت أوامر سرية لنواب الملك و للقواد العامين في نابولي و صقلية وميلانو لكي يأتوا بمراكبهم الحربية و فرقهم و فيالق المدفعية لاجتياز شواطئ بلنسية و أقيمت استعدادات كبيرة مثلما لو أنه يتم التخطيط لفتح مملكة عظيمة. و تم تكليف المحنك و الشجاع دون أغسطين مخييا ضابط فيلق المدفعية بقيادة هذه المهمة العسيرة، فذهب إلى بلنسية يوم 20 غشت و قدم أوراق تكليفه للمطران و لنائب الملك بقصد التفاهم معه، و شرع لدى وصوله إلى المدينة في عقد مؤتمرات سرية من نائب الملك و المطران و القيام بتفتيش الثكنات وزيارة الحصون و القلاع و معاقل الساحل و تجهيزها بكل ما هو ضروري،

وفاجأ المطران ريفيرا لما أخبره بأن طرد الموريسكيين سيبدأ بالضبط من بلنسية بينما كان مقترح هذا الأخير أن يتم من الأندلس. و قد حكى الأب الراهب خايمي بليدا في أخباره بأن المطران الموقر لكي يخفف من غمه أمامه قال له: «خيرا الرهبان يمكننا من الآن فصاعدا أن نأكل الخبز و الحشيش و نرقع أحذيتنا» ملمحا للخسارات الكبيرة التي ستعرفها مداخيل الإكليروس البلنسي بسبب هذا الطرد.

و بالرغم من توخي حفظ السر فان قرارا بمثل هذه الأهمية لم يشأ إلا إذاعته، فقد شوهد جنود شتى ينزلون من قوادس إسبانيا في كل من الفقيش و دانية و لقنت في الوقت الذي كان فيه الأسطول يقطع مياه بلنسية، و شوهد أيضا دون بدرو طوليدو الذي ترأس الأسطول الإسباني و قد قفز إلى البر و سيطر على جبال اشبدان العرين المنيع حيث كان الموريسكيون من قبل عدة سنين قد تحدوا سلطة كارلوس الخامس.

وأحس النبلاء البلنسيون بهاجس إفلاسهم و توجس العامة بقرب حلول كارثة حين لاحظوا بأن الموريسكيين يتقهقرون عن التردد إلى السوق محدثين غلاء فاحشا هدد بالتحول إلى مجاعة. فحضرت حينئذ هيئة النبلاء عند نائب الملك و تأسفت من كونها لم تخبر بما يخطط وبأن النبلاء مستعدون دوما للدفاع عن الملك بأرواحهم و أموالهم، و كان رد المركيس دي قرشانة بأن لا أحد عليه أن يبلغهم و أنه لا يمكن فعل شيء و بأن عليهم أن يتجهوا إلى الملك مباشرة. فذهب مفوضو النبلاء إلى فليبي الثالث و تحدثوا إليه و صوروا له خراب أملاكهم و الخسارة العظيمة التي ستحل بالأديرة و الجامعات لأنهم كانوا مدعمين بالتكاليف العينية التي كان يدفعها الموريسكيون و التي كانت تصل إلى أكثر من إثني عشر مليونا و قدموا له هبة مالية لتعويض النقص الذي سيحصل في الإيرادات الملكية و بينوا حالة المقاومة اليائسة التي يمكن أن يندفع

إليها ذلك العرق و واصلوا عرضهم بجعل الموريسكيين يتحملون القيام بصيانة القوادس ان هو رضي بطرد البحريين. و قد مكث الدوق دي ليرما أطرشا خلال هذا اللقاء لعله كان يفكر في قبعة الكاردينال المقبل الذي عليه أن يحمي رأسه من فأس الجلاد و يتستر على اختلاساته و قد أراد أن يظهر بصورة المدافع المتعصب للمسيحية. و كان رد الملك بعد أن استمع إليهم ببشاشة فيما يبدو ملخصا في جواب وحيد: «سيقوم المركيس دي قرشانة بإطلاعكم على إرادتي». و كانت إرادة الملك معروفة ففي يوم 21 من سبتمبر لدى عودة المندوبين عن نبلاء بلنسية تم استدعاؤهم من قبل نائب الملك الذي تلا عليهم مرسوما ملكيا مؤرخا في 11 من ذلك الشهر يأمرهم من خلاله بالإشتراك بكل قواهم في تنفيذ الإجراءات التي سيتم اتخاذها، فقدمت حينئذ الطبقة النبيلة البلنسية أعظم مثال للتفاني و الخضوع للملكية، و كتبوا للملك بأنه يمكنه أن يطلب منهم حتى آخر دوكا من نقودهم و آخر نقطة من دمهم و أن يطمئن على طاعتهم أيضا فيما سيسببه إفلاس مداخليهم و فقدان نفوذهم الإجتماعي. و قد أعلن في يوم 23 عن مرسوم الطرد في كل شوارع بلنسية و ساحاتها و الذي نعت فيه الملك الموريسكيين بالمارقين و المرتدين و الخائنين، و قال نظرا لتمتعهم بالرأفة فلن يحكم عليهم بالموت و لن تصادر ثرواتهم على أن يبادروا الى ركوب البحر في أجل ثلاثة أيام و يتركوا إلى الأبد أراضي اسبانيا. و كانت الفصول الرئيسية لذلك المرسوم الهمجي كالتالي:

- على الموريسكيين رجالا و نساء أن يتوجهوا داخل أجل ثلاثة أيام و تحت طائلة الموت إلى ركوب السفن التي ستقلهم بالمراسي التي يعينها لهم كل مفوض.

- لا يسمح لهم بأن يخرجوا من دورهم سوى المنقولات التي يستطيعون حملها على أجسادهم.

- يحذر كل من تعرضهم بسوء المعاملة أو المضايقة أو التكدير فعلا وقولا.
- يتم التكفل بتموينهم خلال الإبحار.
- يرخص لأي كان عثر على موريسكي متفرقا خارج قريته بعد مرور ثلاثة أيام حسب المرسوم في أن يستولي على ما يحمله و أن يعتقله ويقتله اذا أبدى مقاومة.
- يفرض حكم الإعدام على جميع سكان قرية يتحقق من احراق الموريسكيين فيها و اخفاء أو دفن جزء من أموالهم.
- يؤمر بأن يمكث في كل قرية يصل عدد قاطنيها الى مائة نسمة ستة من الموريسكين يكونون طاعنين في السن يختارهم الأسياد من بين الذين عدوا من أحسن المسيحيين حتى يمكنهم تعليم المعمرين الجدد طريقة غرس قصب السكر و حقول الأرز.
- يمكن للأطفال دون سن الرابعة البقاء إذا سمح لهم آباؤهم و الذين هم أصغر من ست سنوات ومن أم مسيحية قديمة يجب عليهم البقاء مع أمهاتهم في حالة ما إذا طرد الأب ان كان موريسكيا.
- الذين يحبذون الذهاب إلى ممالك أخرى يمكنهم ذلك شريطة عدم مرورهم عبر أي اقليم من أقاليم إسبانيا.

و لم يكن من السهل وصف الدهشة التي أحدثها هذا الإعلان الرسمي الغير معقول في نفوس الموريسكيين فالآباء و الأمهات و الأبناء و الاخوة و الشباب و الأطفال و الشيوخ كل هؤلاء ظلوا غارقين في ذعر كبير و بكاء، فقد جعلهم يتركون الوطن الذي ولدوا فيه هم و أسلافهم و الأرض التي رووها بعرق جبينهم و أخصبوها بمهارتهم، لقد اختفت الرحمة من قلوب الجميع و وجب تنفيذ هذا القرار الرهيب الصادر عن العاهل الضعيف و الوزير دوق دي ليرما الذي لا ينثني و الذي سيجد معدنا جديدا للثراء في نص المرسوم.

و اتفق السكان و النبلاء الذين كان لهم أتباع موريسكيون و عدول القرى مع المفوضين المعينين من قبل مخييا لأجل حشد الذين سيتم طردهم، و شرع هؤلاء في التوجه زمرا وافرة إلى النقط المخصصة لهم بقصد الإبحار نحو شمال افريقيا ، فبالإضافة إلى ثلاثة و سبعين قادسا و غليونة تم جلب عدد هائل من البواخر من كل المراسي الإسبانية عن طريق الحجز. و لم يشأ أحد انتهاز فرصة الحرية التي منحها الإعلان الرسمي للموريسكيين للانتقال نحو أراضي المسيحيين، بل بالعكس فإنهم تظاهروا رغم غيظهم بالفرح بترك الأرض التي ترفضهم بهذا الحد من القسوة، و مع ذلك بذلوا آخر مجهود و أسماه و حاولوا حتى عن طريق الإسترضاء مذكرين بأن موريسكيي غرناطة كانوا في عهد كارلوس الخامس قد اشتروا بوزن الذهب تعطيل المراسيم الفظيعة التي كانت تهدف إلى ملاشاة جنسيتهم. و كان رؤساء الجماعات بعدما قدموا لنائب الملك في بلنسية عروضا رائعة لأجل تعليق إجراء الطرد مقترحين عليه القيام بأعباء الأسطول و تسديد فرضة (ضريبة) كبيرة و تأدية فدية الأسرى المسيحيين الذين يقعون في أسر القراصنة البربريين، قد ترووا فيما إذا وجب عليهم تقلد السلاح أم الخضوع بطريقة سلمية للإجراءات القاسية التي فرضها نائب الملك، لكنهم عزموا على الذهاب و عرقلة مكوث بعض الأسر في إسبانيا لحاجة الأسياد اليها في تكوين المعمرين الجدد.

و تحرك السكان الموريسكيون البلنسيون نحو البحر بعدما تيقنوا من قرار الجماعة فركب السفن نحو من اثنين و عشرين ألفا وخمسمائة شخص خلال عشرة أيام من مرفأ بلنسية، و خمسة ألف و خمسمائة وخمسة وخمسين فردا مرة واحدة من دانية و أربعة عشر ألف و ستمائة و ثلاثة من لقنت و أكثر من عشرة آلاف من بني عروس، و قد حملوا

من هناك نحو الجزائر و تونس و وهران و مدن أخرى بشمال إفريقيا حيث لاقوا ترحابا جيدا و إكراما. و تعرض الموريسكيون لخطر كبير أثناء سيرهم نحو مراسي البحر ذلك أن المسيحيين القدماء الراغبين في الإنتقام و الذين استمالهم النهب قد شكلوا عصابات قامت بقطع سبيل الموريسكيين الأشقياء و سلبهم و قتلهم الأمر الذي فرض على نائب الملك اتخاذ تدابير مشددة باقامة المشانق في الطرق لعقاب المسيحيين القدماء الذين استسلموا لمثل هذه الجرائم.

و لم تكف هذه التدابير الصارمة لتجنب الإشتطاط الذي أحدث الهيجان في صفوف الموريسكيين و أوقف ركوب السفن، فالجنود والمدنيون على السواء كانوا يتنافسون في الجشع و القساوة، و المدنيون الذين اشتكوا من عدم التعجيل في الطرد انتضموا في زمر خرجت لمطاردة الموريسكيين. و قد روى مؤرخ بلنسية اسكولانو في احدى عشارياته ليبرهن على عدم التسامح الذي يظهره المسيحيون القدامى أن أحد سكان بالما كان يمشي في الجبال حاملا قربينته لمطاردة الموريسكيين فلقي أحدهم ضالا فقتله و شرع على الفور في المشي مطمئنا و معتدلا و السبحة في يده كما لو أنه كان يكفر عن ذنوبه في ذلك الخلاء.

و لم يكن الجنود يرغبون في قيام الثورة فحسب بل حاولوا إثارتها بنشر أخبار زائفة عن أن الموريسكيين عوملوا بالسوء في شمال إفريقيا. وكانت الضرورة بأن يرافق الحرس الموريسكيين حتى المراسي حيث لزمهم الإبحار، و كما شايع كثير من الأسياد من ذوي الغيرة المشكورة أتباعهم حتى البحر فدوق غانديا و مركيس دي البيضا و كوندي دي علمي و دي بونيول و دي كنسنطاينا ذهبوا مع أتباعهم حتى تركوهم داخل السفن، وأما دوق دي مكيدا فحملته مروءته الى حد مرافقة أتباعه من آشبي و من قربليان حتى تركهم في وهران متأكدا من الإستقبال الجيد الذي ينتظرهم.

و كانت الحالة الثابتة للمطاردة التي اتسعت ضد الموريسكيين جعلت صبرهم ينفد في انتظار الإبحار فلم ينتظروا عودة بواخر الدولة التي نقلت معظمهم مكدسين إلى شمال إفريقيا حيث تم في رحلتين فقط نقل نحو ستين ألفا، فأجروا لحسابهم مراكب خصوصية و باعوا أجود أمتعتهم للتمكن من تسديد رسوم العبور، و هكذا شوهد في مرفأ بلنسية عشية الطرد بيع أشياء متقنة الصنع بدوكين كالثياب و الستائر و المطروزات بالذهب و التي كلفت مائتين من الدوكات. و اعتقدت عدة عائلات أنها بقيامها بتأجير السفن ستكون في مأمن عند ابحارها نحو شمال إفريقيا إلا أنها هلكت في الطريق ضحية شح الربابنة و فظاظتهم و تم سلب الكثير من أفرادها و ذبحهم أثناء العبور و رميهم في البحر بعد أن تركهم البحارة مع نسائهم و أولادهم عرضة لأكثر المظالم مقتا.

و من بين الوقائع الأخرى التي لطخت بكيفية لا تمحي الخبطة الهمجية للطرد و الشكل الذي تحقق به ما يرويه المؤرخون عما ارتكبه ربان مركب يدعى خوان باوطيسطا ريبرا الذي حكم عليه ببتر يده اليمنى ثم جعله يموت في المشنقة عقابا له بعد أن كان حمل على متن مركبه فتاة جميلة وحتى لا يكشف عن إثمه فإنه عند وصوله إلى برشلونة رماها في البحر عند مصب نهر يوبرغاط، و عندما كانت الشقية تصارع سكرات الموت و تحاول البقاء فوق سطح المياه و التمسك بالزورق فإن البحار الشرس هشم رأسها بمجذاف حتى اختفى تحت المياه. و قد جعلت مظالم و جرائم أخرى مماثلة نائب الملك يحظر على الموريسكيين الإنتقال إلى شمال إفريقيا على متن مراكب خصوصية. إلا أن الجشع من أجل الذهب أصاب بشكل مثيل الذين يأمرون بالطرد إذ رأوا أنه بالرغم من المرسوم المذكور فإن المهاجرين الأول حملوا معهم نتيجة التغاضي الإحساني للأسياد كثيرا من الأمتعة المنقولة التي لم يكن يحق لهم حملها بعد أن

كانوا قد باعوا مواشيهم وحبوبهم و كما باع بعضهم بيوتهم و أراضيهم، و قدر كل ذلك بأكثر من مليون دوكا و هو المبلغ الذي قاموا بإخراجه من المملكة. و في يوم 11 أكتوبر و تمشيا مع فتوى المحكمة العليا منع نائب الملك سائر البيوعات من الحبوب و الزيوت و البيوت و الأراضي والرسوم و الحصص، مع عدم السماح للمسيحيين القدماء باقتنائها.

و كان هذا القرار أحد الأسباب التي دفعت كثيرا من الموريسكيين ممن كانوا لا يزالون في المملكة إلى الثورة لأن البلاغ القاسي ترك الموريسكيين الذين شملهم قرار الطرد على غفلة ناقصين في النقود و بدون وسائل للحصول عليها، و هكذا انتقلوا في لحظة بالاضافة الى جميع البلايا التي غمت جنسهم من كنف الرفاهية و الرخاء الى حضن البؤس و الفقر ودفعتهم كثرة المضايقة و التنكيد الشديد إلى المقاومة، والتجأ حاكم دانية إلى التهديد ليجعل ثلاثة آلاف شخص تم جمعهم بمشقة في ذلك المكان يرحلون، إلا أن الشبان انطلقوا نحو الجبال و شكلوا عصابة بالقرب من غانديا و أخرى بين دانية و ألقير و تمكنوا معا من حشد الناس بسرعة، وقامت عشرون قرية في سلسلة برنية ثائرة يوم 25 أكتوبر و في 29 منه ثارت سائر قرى السلسلة، و قد تغاضت السلطات لأول وهلة لأجل العمل على إبحار هؤلاء الذين تم جمعهم و رأت فائدة في الصراع مع هؤلاء لكونهم أقل تمردا. و قد استقر نحو من خمسة عشر إلى عشرين ألف رجل من الثوار في وادي الأغوار يدافعون عن عدة قلاع، و كانت توجد في الأسفل قرية صغيرة تدعى مورلا يسيطر عليها مائة و ستة وثلاثون من الجنود المسيحيين، و لما لم تكن للثوار مدفعية و لا أسلحة نارية فإنهم اقتصروا على الإحداق بالقرية بدل محاصرتها و الهجوم عليها ببسالة.

و نظمت المقاومة كذلك في وادي شقر و تم قتل المفوض المكلف بالتحقق من الطرد في دوس أغواص يوم 15 أكتوبر، و تبع موريسكيو قفرنطش و شلنش الفقيه عميرة[33] الذي دفع سكان مويلا دي كورتس إلى الثورة فنصبوا ثريا مسلما من قرية قتداو بدائرة قسيس ملحقة باللمبير يدعى طوريشي[34] ملكا عليهم و كان رجلا قوي العزيمة و شجاعا و مستعدا للقتال قام على رأس ألف من المحاربين بقطع الطرق المؤدية الى مويلة. وكان حاكم ناحية شاطبة دون فرنسيسكو ميلان قد ذهب للتفاوض معه شخصيا و عرض عليه منحه جواز مرور موسعا و مقابلة مع نائب الملك لتدبير الأمور المتعلقة بمصيره حسب مرضاته لكن دون جدوى، فقد رفض الطوريشي كل ذلك واشترط بأن يؤجل ركوب السفن حتى فصل الربيع و أن يترك للمهجرين حق بيع أراضيهم و أملاكهم.

و قام ثوار وادي الأغوار من جانبهم باختيار ملك آخر أيضا فمنحوا هذا اللقب لطحان من قرية الحفرة يسمى خرونيمو مليني[35] و كان رجلا عاديا إلا أنه حوصر بعد قليل من تنصيبه و اضطرته الفاقة بعد الإستيلاء على جميع قوافله إلى طلب الإستسلام في 16 نوفمبر، بيد أن دون سانشو دي لونا الذي كان يقود الجيش في غياب دون أغسطين مخييا وبعد عدة مفاوضات قدم للطحان شروطا قاسية جعلته يفضل الموت على أن يقبلها، و انتظر المساعدات من موريسكيي الأندلس لكن انتظاره ذهب

33- لعله من حفدة الشيخ الفقيه و القاضي و الكاتب أبي المطرف أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي صاحب التقييد المعروف بـ «تقيد المسا ئل»، توفي في بلنسية عام 658 للهجرة. و ذكر المؤرخ اسكولانو أن الحفيد المشار اليه كان ينتمي الى قرية مويلا دي كورتس و أن له وزنا كبيرا بين سكانها و أن خطبته فيهم كان لها تأثير حاسم في انخراطهم في الثورة، و قد عينه الطوريشي واليا على الشؤون العدلية.

34- فينطي طوريشي ثري موريسكي من قرية اللمبير قاد ثورة الموريسكيين عقب صدور قرار الطرد (1609) ومات تحت التعذيب في بلنسية في دجنبر من نفس العام.

35- اسمه المسلم أحمد «الشكيم» المليني و كان أحد أكبر المشجعين على الثورة و المحرضين عليها، لكن المجتمعين حوله كانوا يفتقرون الى كثير من العدة و العتاد.

سدى. وعندما عاد القائد المحنك مخييا لم يرغب في تعريض جنده لخطر هجوم قاتل إلا أن يكون مضبوطا لأجل السيطرة بعنف على الموقع الذي يحتله القيل المليني الذي التجأ إلى قلعة بني موريل مع عدد [illegible] من العائلات و الأطفال و جزء من ثرواته. و قد تعرض هذا الأخير لهجوم في حصنه الريفي من قبل قوات مخييا الذي كان يمشي في المقدمة حاذيا نعلا مصنوعا من القنب مثل عساكره و حاثا إياهم بكلماته و بشجاعته، و لم تنفع الموريسكيين الصخور الضخمة التي هدوها فوق رؤوس الزاحفين نحوهم و قتل المليني في المعركة على يد رقيب في الجيش يدعى فرنسيسكو كياردو الذي أنفذ فيه رمحه، فلما رأت قواته أن ملكهم هلك تفرقوا شذر مذر وذهب بعضهم إلى الانزواء في حصن بني موريل فحاصرهم عند قدمه دون أغسطين مخييا مدة ثمانية أيام منتظرا أن يدفعهم الجوع إلى الإستسلام، و عمد إلى تغيير مجرى تيار المياه لمنع المحاصرين من كل وسيلة للتزود بها. و في الأخير ظفر بصبره فقد طلب الموريسكيون الاستسلام بعد أن أنهكهم الجوع و كوتهم شدة العطش فأجبروا على ركوب البحر فورا.

و لأجل تكوين فكرة عن العذاب الذي عاناه هؤلاء الأشقياء يكفي القول انه لما أمنهم دون أغسطين مخييا على حياتهم خرجوا من تحصيناتهم القروية و ارتموا في المياه الجارية من العين لشدة ظمأهم و تمادوا في الشرب و باشتياق كبير لدرجة أن الكثير منهم هلك بشرب كمية مفرطة من المياه.

و قد تم نقض الاتفاق الذي استسلموا بمقتضاه في 26 نوفمبر، و يقول مؤرخ بلنسية إسكولانو بأن الله سوغه هكذا لكي لا يذهبوا بغير عقاب بعد عدة جرائم. فقد تعرضوا أثناء نقلهم بقصد الإبحار لاعتداءات في الطريق من طرف المسيحيين الذين كانوا يقتلونهم، و لم تكن البلاغات و

لا التهديدات كافية لتجنيبهم ذلك و تخليصهم من تلك المحنة، و قد بلغ بهم البؤس حده لدرجة أن الآباء اليائسين كانوا يبيعون أبناءهم حتى لا يروهم يموتون جوعا و كما فقدوا الأمل في قدرتهم على إبحارهم، وهكذا لم يتجاوز عدد الذين وصلوا سالمين و غير مصابين بأذى إلى المراسي العشرة حيث كان عليهم أن يجدوا السفن التي ستحملهم، و يقول المؤرخ دون أنطونيو دي روخاس إي كرال في حكيه عن الثورة و طرد الموريسكيين من مملكة بلنسية:

« لقد أتوا للمركب عراة مسلوبي الأمتعة و مرضى و بؤساء بدون نقود و لا زاد، و كان هذا حظ ثلاثة عشر ألف من الثوار عند ركوبهم السفن في دانية و شابية، و قد مات كثير منهم على نحو يرثى له في الأيام القليلة التي قضوها بالمراسي منتظرين الفرصة، و نعتقد أن الذين عاشوا من بعد كانوا جد قليلين بالنظر إلى عوزهم و نكبتهم».

و لم تحقق ثورة مويلا دي كورطس النتائج الموعودة في بدايتها فقد تخلى عن القيل طوريشي أتباعه الذين استسلموا بدون قتال في 21 نوفمبر فأبحروا في عدد مكون من ثلاثة آلاف فرد في 26 منه، فانتقل إلى شقر مع حفنة من الرجال الشجعان رافضا جواز المرور الذي عرضه عليه نائب الملك و مداوما على الحرب، فكان يباغت أسراب الجيش المسيحي ويعرض كثيرا من جنوده للموت و يظهر بسرعة لا تصدق في مكان وآخر. فأعلن عن فدية لكل من يأتي برأسه مثلما حدث في غرناطة مع ابن عبو، وبقي إلى أن فاجأه موريسكي يدعى كسبار بودص يوم 6 دجنبر كان يكن له ضغينة لأنه خطف بنتا له و يرغب في الإنتقام منه، فقام بارشاد خطى الذين يبحثون عنه و دلهم على المغارة التي لاذ بها، فتم أسره و نقله إلى بلنسية في 16 من نفس الشهر، و بعد أن طوف به فوق حمار صدر عليه الحكم ببتر يده اليمنى و شنقه ثم تقطيع أطرافه و تعليق رأسه بباب سان

فيسنطي، و مات الطوريشي وهو يقر بكونه مسيحيا، و علقت جمجمته بباب سان فيسنطي. و قد انشتت عصابته التي كانت لا زالت مؤلفة بأكثر من أربعمائة رجل، و كان دون فليبي بويري قد استمالهم بواسطة الإقناع فلم يبق منهم في أواخر عام 1609 سوى عشرين تقريبا لم تنفع معهم سائر الإقناعات و لا المطاردات التي قام بها الجيش. و كان الأخوان سيمون وبدرو ثباطا قد تفرغا لإخراجهم من الجبال فأمضى سيمون ثلاثة و ستين يوما يحثهم على الإستسلام و ذهب بدرو ليضع نفسه رهينة في الجزائر حتى جعلوهم يركبون السفن، و بعد هلاك الطوريشي استدعيت القوة من جديد لجمع الذين بقوا يتنقلون متفرقين و متسترين. و أذعن الملك في قرار الطرد الثاني لرغبات المركيس دي قرشانة و الأسياد الآخرين فأصدر أمرا يجبر فيه على الخروج الأشخاص الذين يفوق سنهم إثني عشر عاما فقط، بيد أن مطران بلنسية ريفيرا الذي رأينا مشاركته الرئيسية في الضربة القاضية للطرد ألح بقوة لكي يشمل القرار حتى الذين هم في سن السابعة، و جعلهم يعمدون مع التقيد بالتزام بسبب شكوكه في كونهم لم يعمدوا جيدا في المرة الأولى.

و هكذا خرج من مملكة بلنسية فيما بين 26 سبتمبر 1609 و مارس 1610 أكثر من مائة و خمسين ألفا من الموريسكيين إلا أن أكثر من نصفهم لم يصلوا إلى المراسي التي وجهوا نحوها و ذهبوا ضحية حنق الجنود خلال الطريق و قساوة البحارة في غمار البحار. و استولى الملك فليبي الثالث على أموال الموريسكيين الذين أمسكوهم و السلاح في أيديهم أو الذين استسلموا و من لم يقتل فقد أرسل إلى الأشغال الشاقة.

و تم الشعور فورا بعواقب طرد الموريسكيين من بلنسية لكن لم يتم إيقاف السباق المشؤوم لدوق دي ليرما الجشع الذي حصل لنفسه و لأبنائه على النصيب الذي استولى عليه و هو مبلغ خمسمائة ألف دوكا أو

خمسة ملايين ريال من إيرادات بيع دور الموريسكيين. و كان هذا الوزير الجشع متعودا على استثمار التدابير السياسية الكبرى لصالحه دائما، فنقل العاصمة إلى مدريد في سنة 1606 كلفه مليونا من الريالات من قبل ثلاث سنين و دارا فاخرة علاوة على تسديد بيت مدريد و إيجارات الدور التي يقطن فيها جميع أبنائه. و لأجل تخليد ذكرى طرد الموريسكيين من بلنسية و هو الحدث الذي غمر بالفخر ذلك الوزير الأخرق و الفاسد وضعت لوحة كبيرة من الرخام في يوم 21 سبتمبرعام 1609 و لا يزال يحتفظ بها في قاعة المجمع الإكليروسي ببلنسية، و قد كتب في هذا النصب التذكاري الكذاب لأجل خداع الأجيال القادمة إذا لم يكذبه التاريخ بالدم بعد ارضاء زهو الذين اشتركوا في الطرد بنقش أسمائهم فيها أن هذا الحدث العظيم تحقق بهدوء تقريبا. و إن سيول الدماء التي جرت على أرض بلنسية و رعب أوربا المتحضرة و صراخ الإستنكار الذي لم يكف لإسكات مرور قرنين و نصف سينهضون لتفنيد مثل هذه المداهنة الحقيرة.

و كان المؤرخ كسبار إسكولانو هذا الرجل المسؤول الذي شاهد الجزء الأكبر من الأحداث عند نهاية سرده قال هذه العبارات الجديرة بالذكر: «و اذن انتهت آثار قدماء مملكة بلنسية بالحالة الجديدة التي توجد عليها، وتحولت من أحسن مملكة مزهرة في إسبانيا إلى قفر جاف و كئيب بعد طرد الموريسكيين».

11

طرد الموريسكيين من سائر ممالك اسبانيا

بعد صدرو قرار الطرد في حق الموريسكيين في بلنسية تلاه صدور مرسوم يقضي بطردهم من الأراضي الأندلسية في 9 دجنبر1609 و من مرسية في 18 يناير 1610، و قد عهد بتنفيذه إلى المركيس دي سان خرمان الذي استعمل سلطته الذاتية و بدون استشارة أحد فاختصر مهلة ثلاثين يوما التي كان الملك قد منحها لهم إلى عشرين يوما. و كان الموريسكيون من جانبهم قد احتاطوا من الوقت فانتقلت أعداد منهم تناهز العشرين ألفا سريا إلى مملكة فاس، و كان قد سمح لهم أخذ أبنائهم معهم أيا كان سنهم إذا ما ساروا نحو البلدان الكاثوليكية و لكن إذا حبذوا الهجرة نحو إفريقيا فيجب عليهم ترك الذين تقل أعمارهم عن سبع سنوات، وقد خرج بموجب هذه الشروط من البلاد الأندلسية نحو ثمانين ألفا من الموريسكيين.

و كان نواب مرسية قد توجهوا إلى الملك يطلبون منه تعطيل خروج الموريسكيين من المملكة خوفا من ضياع المهارات و إهمال الفلاحة، لكن بدون جدوى لأن الملك و دوق دي ليرما لا يعيران أذنا صاغية للمطالب ولا يلتفتان لأية حجة. و قد تم طرد موريسكيي مرسية من طرف دون لويس فخاردو و كانوا في عدد يفوق الخمسة عشر ألف شخص. وكما تعرض أهل أراغون للطرد أيضا من الأرض التي شهدت نشأتهم، و كان المكلف بإجراء القرار الذي رماهم من المملكة و الصادر في 27 أبريل 1610 هو

المركيس دي أيطونا الذي نفذه بدون أن يستمع الملك و لا الوزير للمفوضين الذين بعثهم نواب أراغون لأجل إبطال مفعول القرار. و أجمعت سائر القوات البحرية و الأرضية في بلنسية على طرد الموريسكيين الأراغونيين الذين كان يخشى منهم حدوث مقاومة قوية أكثر من البلنسيين، و لكنهم مع ذلك استسلموا بهدوء للمفوضين الذين تعسفوا كثيرا في معاملتهم أثناء ترحيلهم بحيث كما قال الراهب ماركو دي كوادالاخارا شفيير في مؤلفه «الطرد المستحق الذكر و النفي المنصف لموريسكيي إسبانيا» إنهم أجبروا حتى على دفع ثمن الماء الذي شربوه من الأنهار و الظل الذي تظللوا به تحت الأشجار. و بلغ عدد الموريسكيين المطرودين من أراغون أربعة و سبعين ألفا ينتسبون كلهم إلى ثلاث عشرة ألف و ثمانمائة و ثلاث و تسعين عائلة أبحرت من الفقيش، و دخل آخرون فرنسا عن طريق نفارا و كنفرانك بعد أداء عشرة ريال فرنسي عن كل رأس.

و كان نصيب الموريسكيين الكطالانيين الطرد بدورهم و قد أمهلوا مدة ثلاثة أيام لإخلاء البلاد، و رخص لكل من صادف بعضهم في الطريق أو خارج البلدة بأن يقبضهم و يطردهم و يقتلهم في حال إبداء المقاومة دون أن يتعرض لأية عقوبة. و هكذا خرج من كاطالونيا خمسون ألف موريسكي عن طريق ميناء لارابطة ما بين 29 مايو و 10 سبتمبر.

و أما المنتسبون لقشتالة و لامنتشا و إشترمادورا و الذين كانوا مختلطين أكثر بالمسيحيين القدماء و قلما يشتبه فيهم و مخيفين بشكل أقل فقد بدا و كأنهم بإمكانهم الإفلات من العقوبة القاسية بطردهم من إسبانيا الا أن قرار إبادة العرق الموريسكي كان قائما و إذن فقد تم العزم على طردهم. و أمر الموريسكيون بألا يمروا عبر بلنسية و لا أراغون و لا الأندلس و لكنهم خولوا بواسطة عفو خاص جدا على إمكانة الحصول من عند الأساقفة على إذن لأجل البقاء في إسبانيا بالنسبة لأولئك الذين

تركوا إحساسا بأنهم مسيحيون قدماء في لغتهم و لباسهم و في العادات و في احترام الدين و تناول القربان المقدس، وبالرغم من هذه الاستثناءات فقد خرج من قشتالة مائة ألف موريسكي.

و ظلت في الأخير بلدتان منعزلتان استثنيتا أيضا في مرسوم 22 مارس لعام 1612 و قد شملهما قرار الطرد، و هكذا قام كوندي دي سالازار بطرد نحو ألفين و خمسمائة موريسكي من وادي رقوتة من مملكة مرسية و نحو ألف و مائة من قلعة رباح بالرغم من كونهم يتمتعون بامتيازات المسيحيين القدامى منذ عهد الملكة إيسابل الكاثوليكية.

و يستحيل قطعا تحديد عدد الموريسكيين الذين غادروا إسبانيا في رقم قار، و ان المؤلفين يختلفون فيما بينهم حول العدد متراوحين ما بين مائتين و سبعين ألفا إلى مليون نسمة، فإسكولانو و الأب كوادالاخارا يحددانه في ستمائة ألف و الراهب خايمي بليدا في خمسمائة ألف و سالازار و مندوثا يضعانه في ثلاثمائة و ستين ألفا و فونسكا في سبعين ألفا. و أما التقديرات الأكثر تأسيسا فتعتبر أن العدد التقريبي كان هو المليون شخص إذا تم عد حتى الذين كانوا قد فروا إلى فاس و الذين هلكوا ضحية الهمجية و طمع العسكر، و الذين سقطوا تحت سقالات الإعدام أو دفنوا في زنازن محكمة التفتيش.

12

طرد الموريسكيين من وجهة نظر الجانب الاقتصادي و السياسي و الديني و عواقبه على إسبانيا.

لم يكن بالهين الضرر الذي سببه فقدان إسبانيا للجزء الفائض من سكانها المطرودين سواء لعددهم أو لطبقة انتمائهم و طبيعتهم التي كانت بالخصوص من طينة الفلاحين و التجار و أرباب الصنعة، و في نهاية المطاف السكان الأكثر إنتاجا و تمويلا للضرائب. لقد بقيت زراعة السكر و القطن و الحبوب و تربية دودة الحرير التي تفوق فيها الموريسكيون كثيرا مهجورة كليا في الحقول المخصبة ببلنسية و مرسية و غرناطة، و اضطرت مصانع الورق و الحرير و النسيج التي كانت لديهم في الحصون إلى الاغلاق لأن الإسبانيين الغير متعودين على الفنون و الصنائع كانوا ينظرون بازدراء واحتقار إلى مزاولة هذه المهارات التي احتكرها الموريسكيون لأنفسهم وحققوا منها مكاسب عظيمة.

و لم يعان أولئك الأشقياء الإضطهاد في إسبانيا بحجة الدين فحسب، إلا أنهم وجدوا أنفسهم أيضا معرضين للأعمال الشائنة و حتى للعذاب في بعض جهات افريقيا، لقد كانوا مسيحيين زهيدين بالنسبة لإسبانيا ومسيحيين بالزيادة بالنسبة لشمال إفريقيا فكان وضع هؤلاء التعساء قاسيا و مريعا و لايحتمل.

و كانت الأضرار التي سببها طرد المورسكيين من إسبانيا جد خطيرة و حادة بحيث لم يكن مضي قرنين و نصف كافيا لإشفائها من ذلك تماما،

فأثار الطرد تم لمسها بشكل قوي في النسق الاقتصادي و السياسي و الديني، فمن الجانب الإقتصادي وجدت الأمة نفسها مجردة من سكانها المجدين و المنتجين و المؤدين للضرائب و شاهدت أكثر من مائة مليون ريال التي حملها معه الجنس المنفي تختفي مع تلك الهجرة مما تسبب في ندرة النقود التي باتت تعانيها إسبانيا بشكل مستمر. و قد كلف نقل الموريسكيين إلى شمال إفريقيا ثمانمائة ألف دوكا، و بالرغم من الحظر المفروض على الموريسكيين فانهم أخرجوا بمساعدة سفير فرنسا الذي منحهم خطابات في السر عدة ملايين تاركين من ورائهم كمية هائلة من العملة الزائفة مما أثر في التجارة و المالية العامة. بالإضافة إلى ذلك فان الحقول ظلت بدون زراعة و ذهبت محاولة تلقين المعمرين الجدد كيفية الزراعة سدى لأن الذين مكثوا لهذا الغرض حسب مرسوم الطرد القرار المؤسف و المخزي للبلاد بهذه المناسبة لم يقبلوا بتعليمهم عن حسن نية و لا كان لأولئك حب في العمل و لا ادخروا جهودا في أعمال الفلاحة كالتي قام بها ملاكو الأرض السابقين.

وخسر الأسياد الإقليميون كثيرا من إيراداتهم و لم تستطع إسبانيا أن تخلف النقص في أعداد المزارعين أبدا بعدما أضاعتهم بالطرد. و وقع اختبار مؤسف و مفاجئ برهن على الغلطة المشؤومة المرتكبة بذلك الإجراء فقد حلت المجاعة بطريقة مرعبة في العام الموالي لسنة 1610، و خسر الإكليروس القسم الأكبر من مداخيله و اضطر الملك إلى تعيين منح غذائية لكثير من الأسياد المعتبرين بعد أن أصبحوا مفلسين، و بقي عرض مركيس دي قرشانة للمزارعين الذين قدموا من جليقية و أماكن أخرى لأجل تعمير القرى المهجورة بمنحهم كل المنافع الممكنة دون جدوى، فلا كان الفلاحون يفدون بأعداد كافية و لا كانوا يعرفون تخصيص النشاط الفلاحي المناسب للأراضي، و بدل أن كانت المدن الغنية تملأ مملكة بلنسية من قبل

فانه اضطر إلى كتابة عبارة خال من السكان في خريطة هذا البلد الرائع.

و ترك الأسياد قلاعهم مقفرة بعدما تقلصت ثرواتهم بشكل كبير فأصبحت بعد أن هجروها مأوى للصوص الذين استقروا هناك في أمان مخيف، و نظمت السرقة فغدت كأنها مهنة عادية و رفع التهريب رفيقها الملازم جبهته إلى جانبها بكثير من الجرأة مثل النجاح، و هدمت القلاع الإقطاعية و قام أصحابها الذين لم يقدروا بسبب أحوالهم على حماية أنفسهم لانعدام أتباعهم بالتمركز في المدن، و أفلست الصناعة لنقص السواعد الماهرة التي تنعشها فأغلقت المصانع و بقيت الأوراش عاطلة. وعد إذن طرد الموريسكيين تدبيرا فاجعا من الناحية الاقتصادية.

و ان البحث عن التبرير بالمؤامرات المفترضة التي اتهم المطران ريفيرا الموريسكيين بتدبيرها و الذي طالما أثر بذلك في نفسية فليبي الثالث الضعيفة و الخرافية و بجشع وزير أخرق مثل دوق دي ليرما يبقى غير مجد، فلم تكن قدرة الموريسكيين البلنسيين كما ساد الاعتقاد قادرة على أن تهز أسس الملكية الإسبانية أبدا و لا كان لهذه المؤامرات امتداد واسع و وسائل كفيلة بجعلها لا تقهر. ألم يكن هذا اذن، باعثا لإدانة إبادة عرق بأكمله و أجيال عديدة!.

و فضلا عن ذلك، فان الموريسكيين المطرودين تسببوا في نوع أخر من الأضرار لإسبانيا أكثر شؤما من الشرور التي زعم تجنبها بطردهم، لقد كست هذه الأضرار شواطئها بلباس الحداد و الحزن لسنوات عديدة فقد لجأ كثير من الموريسكيين تحركهم الضغينة الدفينة ضد الإسبانيين المسيحيين بسبب المعاملة الفظيعة التي رأيناها من قبل و التي عانوها عند طردهم الى الانخراط في خدمة السفن العثمانية و الإتجاه نحو ممارسة القرصنة فكانوا يعبرون بإيثار شواطئ إسبانيا، و تقدم لنا حوليات القراصنة الأفظاظ أمثلة عن هذا الواقع فقد كان مراد بايوبي المولود في

قرية البسيط دي لا منتشا قرصانا مشهورا يتحكم في عشر قوادس كانت تابعة للباب العالي و أربعة آلاف رجل كانوا يزرعون الرعب في سواحل البحر الأبيض المتوسط و إسبانيا و صقلية حيث قبض عليه في 21 أكتوبر عام 1623. الا أن القرصنة لم تكتسب صيتا كبيرا في حوض المتوسط إلا حين قضي تماما على العنصر الموريسكي الإسباني، فقد خرب الرايس بلانكييو لمدة عشر سنوات شواطئ إسبانيا إلى أن سقط في أيدي أعدائه سنة 1623. و كان فحام يعيش مسالما في أشونة يسمى أبو علي قد خلق الرعب في حوض المتوسط و نشر الذعر في شواطئ بلنسية لمرات متكررة فقد حوله الطرد من بلده من فحام مسكين إلى بحار مرعب، و كانت ثلاث غليونات قد قامت سنة 1624 تحت إمرة خراز من «المدينة الملكية» دعي مراد كبير-الواد اليانع بسلب جميع شواطئ مملكة بلنسية و ايطاليا. و تدل هذه الأمثلة على أن الموريسكيين الذين كان فليبي الثالث اعتبرهم خطيرين على إسبانيا قد كانوا أكثر خطرا بعد طردهم منها، فاذا كان العاهل و وزيره الأخرق يعتقدان أنهم أعداء ألداء فإن تركهم بحرية في بلد أجنبي لكي يستطيعوا الإتيان إلى إسبانيا للتسبب في الأضرار التي أحدثوها يعد خطأ جسيما.

و قد تشتت معظم الموريسكيين المطرودين من وطنهم إسبانيا في شواطئ شمال إفريقيا و التجأ أفراد العائلات المهمة إلى المغرب حيث وجدوا أبناء دينهم جاهزين لتلبية رغباتهم في الإنتقام مما شجعهم على إبراز حقدهم الدائم، و شيدوا هنالك مدنا من بينها تطوان. و كان أفراد أسرة بايص الموريسكية قد اتخذوا لهم أرضا على ضفاف واد الحلو و لكن مخافة إثارتهم غضب القبائل التي كانت ترقبهم بحقد مثل الأجانب وان كانوا يدينون بنفس ديانتهم دفعتهم إلى تشييد مساكنهم عند منحدر الجبل الذي أتاح موضعه سبلا شتى للدفاع عنه، و شيئا فشيئا بدأت

تنهض الدور و البناءات هناك حتى صارت تتشكل مدينة تطوان أو كما يسميها المسلمون تطاون المدينة المقدسة لديهم.

إن وصول النازحين الجدد الذين عوملوا بسوء في إسبانيا أضرم العواطف العدائية التي كانت تسود في قلوب العرب و الريفيين والبربر الذين يشكلون القسم الغالب من سكان المغرب، و قد ظلت هذه الإمبراطورية خلال ردح طويل من الزمن في حرب مفتوحة مع البرتغال أو إسبانيا أو مع أية دولة أخرى من البلاد المسيحية، و قدمت هذه الحرب الدائمة فترات مختلفة: انتصرت القوات الإسبانية ببسالة في عدة مرات، و حصل العكس في مرات أخرى حيث انتزع الهمجيون من المنتصر بواسطة مكايد جريئة ما كان قد استولى عليه بشجاعة، و قد نتج عن هذا الصراع الطويل أن استولت إسبانيا على بعض المواقع في الساحل الافريقي و هي لازالت إلى الآن تحوز في ذلك الشاطئ القاحل مدن مليلية و حجرة بادس و الحسيمة و سبتة و هذه الأخيرة تقع أمام جبل طارق وتتحكم و اياه في مدخل المضيق.

و كان أحد بنود معاهدة لشبونة لعام 1668 قد تنازل عن سبتة لصالح إسبانيا الا أن هذا المعقل بقي هدفا لهجومات المغاربة بشكل مستمر، وعانى المعقل من حصار دام 26 سنة و هو أمر لم يسبق اليه في التاريخ من عهد كارلوس الثاني إلى عهد فليبي الخامس الذي عمل على رفع هذا الحصار الطويل عام 1720 بفضل جيش مكون من ستة عشر ألف رجل كانوا تحت قيادة المركيس دي ليدي ، و اضطر هذا العاهل أيضا سنة 1732 إلى ارسال جيش آخر تحت إمرة كوندي دي منطمار لإغاثة سبتة التي حاول سلطان المغرب انتزاعها من التاج الإسباني بتحريض من المغامر الشهير دوق دي ريبيردا. و هاجم المغاربة على عهد كارلوس الثالث سنة 1774 في نفس الوقت كلا من مليلية و الحسيمة و حجرة بادس و سبتة،

فأعلن العاهل الإسباني الحرب على المغرب و أرغم المغاربة بالقوة سنة 1775 على التماس الصلح و تقديم ضمانات جديدة للمستقبل.[36]

إنهم ورثة الأرض التي شيدت عليها قرطاجة الشهيرة و هم أيضا ورثة العقيدة البونيقية التي ضرب بها المثل في روما، إنهم الخائنون لوعودهم والمغلوبون دائما لقد عادوا فيما بعد إلى الإهانة بحدة أكثر و ليس لديهم أدنى تردد للضمير في خرق الأيمان المحرمة و الاتفاقات الهامة، فكان على سائر ملوك إسبانيا أن يمارسوا عقوبات إنتقامية فظيعة ضد هؤلاء السكان الغدارين. و يمكننا القول إن حالة الحرب لم تنقطع أبدا بالتمام بين إسبانيا وجيرانها البربر، و ان وضعية سبتة و مليلية هي حالة حصار دائم لم ينقطع سوى في بعض فترات السلم الذي لم يخل من نقض، فإذا كانت إسبانيا قد انتظرت توقفه خلال وقت طويل عن طريق المفاوضات فان الاهانات الحديثة الملحقة للضرر بإسبانيا من قبل الهمجيين جاءت لتظهر العكس. و ان الحملة المجيدة للأشهر الخمسة التي أدت الى نصر تلو آخر من طرف الجنرال ليبولدو أو دونيل و التي نصب فيها العلم الإسباني المهان في سبتة فوق مدينة تطوان المقدسة لدى المسلمين بينت للعالم في عام 1860 بأن الإسبان لا يزالون يملكون الهمة و الشجاعة التي أظهرها آباؤهم في تلك الجهات نفسها في العهود الزاهية لحكم كل من فليبي الخامس و كارلوس الثالث. و قد أقر المغاربة الصلح بتنازلهم عن جزء من ترابهم قريب من

36- جاء استيلاء الايبريين على هذه المراكز الحيوية من التراب المغربي في اطار التسابق الاستعماري و كذلك ضمن الصراع الديني القديم بين المسيحية و الاسلام و يكفي في هذا الصدد أن نذكر و صية الملكة ايسابل الكاثوليكية بتاريخ 12 أكتوبر 1504. و قد عرفت مدينة سبتة منذ سقوطها في يد البرتغال ثم الاسبان من بعدهم أكثر من مائة حصار و أكثر من مائة و ثلاثين هجوما، و كان أطول حصار هو الذي فرضه السلطان مولاي اسماعيل من 1694 الى 1727، بينما عرفت مليلية أربعة عشر حصارا و أكثر من خمسين هجوما و كان أطول حصار دام أربعة أشهر في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله. و لم يقتصر الاحتلال الاسباني على المدينتين المذكورتين فحسب و انما شمل أيضا جزرا صغرى محاذية للشاطئ المغربي المتوسطي كصخرة بادس و جزر رأس كبدانة أو ملوية و الجزيرة المقابلة لخليج الحسيمة.

سبتة و على الساحل الأطلنطي و تأدية غرامة حربية كبيرة (أربعمائة مليون) و إبقاء مدينة تطوان الجليلة تحت سلطة إسبانيا حتى أداء الغرامة كاملة[37].

و ليس في نيتنا سرد هذه الوقائع العظيمة لقواتنا و هذه الصفحة الجميلة من تاريخ قرننا، فقد ذكرناها فحسب لدى الحديث عن حالة العداء المستديم عند العرب الذين دعت الضرورة دائما إلى التنكيل بهم بقوة و الذين كانوا منذ مائتين و خمسين عاما قد استقبلوا تعزيزات قوية بعد طرد الموريسكيين الأمر الذي شكل ضررا كبيرا للأمة الإسبانية من الناحية الاقتصادية و سياسيا أيضا، و لم يثمر خيرا سوى من الجانب الديني فقط و هو الوحدة الدينية و تطابق العقائد بين جميع السكان، لقد اقتنت إسبانيا هذه الوحدة الدينية على حساب ازدهارها الداخلي فطردت اليهود أولا ثم الموريسكيين من بعدهم، و فقدت الأقاليم الفلامانية الغنية و الرائعة على حساب توسعها الخارجي بعدما دفنت هناك ذخائرها وجيوشها لأجل تعضيد صفاء دينها.

و إن الأمة الإسبانية التي اشترت وحدتها الدينية بثمن باهظ وضحت بكل شيء في سبيلها حتى بمليون من سكانها فإنه لا يزال يوجد من يعرض عليها في هذا القرن أن تتخلى عنها لكن ليس بدلا عن حيازة مملكة مثل الأراضي المنخفضة أو الاحتفاظ بمليون من السكان بصناعتهم المزدهرة و غناهم و لكن بمقايضة كلمات فارغة و عقيمة!.

37- تنم تلك النعوت الشائنة عن حقد دفين و كراهية تجاه المغاربة غذتها عقود طويلة من الصراع بين البلدين و في نفس الوقت فان النصر الذي يتحدث عنه الكاتب ليس الا حربا استعمارية يتجاهل ظروفها و ملابساتها، و هي حرب فرضتها اسبانيا على المغرب و المعروفة بحرب تطوان أو بحرب افريقيا كما يحلو للأدبيات الكلونيالية الاسبانية تسميتها تفخيما لها، و قد كلفت المخزن المغربي باهظا، و كانت قد انتهت باحتلال مدينة تطوان عام 1860 و تعليق الجلاء عنها الا بتسديد غرامة مالية حربية قدرها عشرون مليونا من الريال أي مائة مليون بسيطة أو أربعمائة مليون من البلايين أي القروش.

الفهرس

منشـورات ليتـوغـراف
Ediciones Litograf

عبد العزيز السعود

من مواليد تطوان. حاصل على الليسانس في التاريخ والجغرافيا من جامعة محمد الخامس بالرباط، وحاصل على دبلوم الدراسات العليا وعلى دكتوراة الدولة في التاريخ. وهو أستاذ وباحث في التاريخ وفي الحضارة الإسبانية وله عدة مؤلفات باللغتين العربية والإسبانية.

منشورات ليتوغراف
Ediciones Litograf

عبد العزيز السعود

مـن مـواليد تطـوان. حاصل علـى الليسانس في التاريـخ والجغرافيا مـن جامعة محمـد الخامس بـالـربـاط، وحاصل على دبلـوم الدراسات العليا وعلـى دكتوراة الدولة فـي التاريخ. وهـو أستاذ وباحـث في التاريخ وفي الحضـارة الإسبانية وله عدة مؤلفات باللغتين العربية والإسبانية.

شـكلت قضـية الموريسـكيين مادة أساسـية بالنسـبة لعديد من الإخباريين والكتاب الإسـبانيين، فظهرت مؤلفات عدة تميزت عن بعضها بالتفاوت في الموضـوعية والمغالاة ونهج مقاربات متباينة في تناول المسألة الموريسكية في كثير من ملابساتها، فتحدثت عن محاولات استيعاب المدجنين ودمجهم في المجتمع المسيحي بترغيبهم في التنصر وترهيبهم، وذكرت ثوارتهم في جبـال وقرى غرناطة وبلنسـية وغيرهما وأثنت على قـرارات الطرد في حق هؤلاء السـكان الإسبان بسبب عقيدتهم وأبان بعضـها العواقب التي ترتبت عن الطرد الجائر الذي أربك سائر البنى الإقتصادية والإجتماعية والسكانية في إسـبانيا وأوقف عجلة ازدهارها و تقدمها قرونا طويلة. ويعد هذا الكتاب الذي قمنا بترجمته إلـى العربية والتعليق عليه من بين المؤلفات التي حاولت أن تلم بمختلف تلك الجوانب.

منشورات ليتوغراف Ediciones Litograf